مهرنوش زائري أصفهاني

Telegram:@mbooks90

33 قنطرة وشاي خانة

ترجمة: هبة ابراهيم

مقدمة 4

الجزء الأول: ايران 9

الجزء الثاني: تركيا 50

الجزء الثالث: ألمانيا 59

خاتمة 104

عن الكاتبة 108

مهرنوش زائري أصفهاني

٣٣ قنطرة وشاي خانة

رواية

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

The translation of this work was supported by Goethe-Institute, which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs, within its program Litrix.de.

إهداء إلى مهري وحسين... أبي وأمي الشّجاعان.

مقدمة

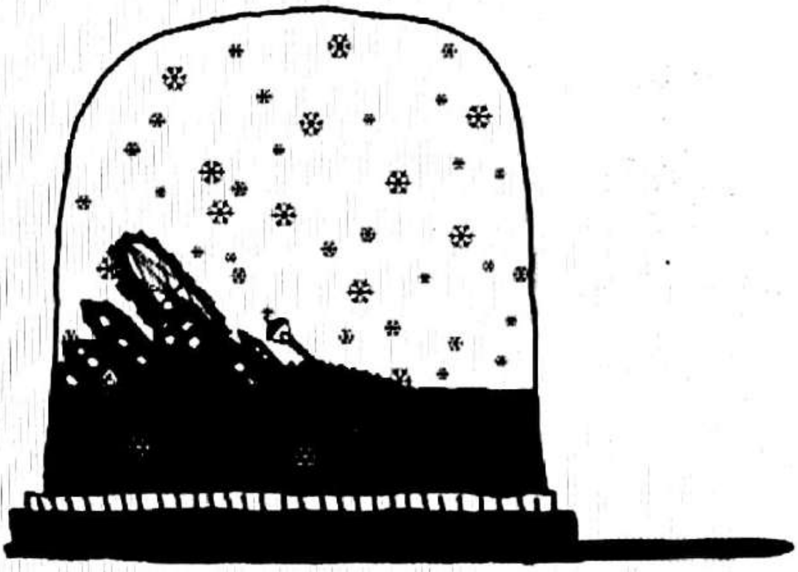

بريبيات
PRIPJAT

«بريبيات» هو نهرٌ ضخمٌ يتدفّق على مدى ثمانمئة كيلومتر تقريباً. يقع منبع هذا النّهر في أوكرانيا، بالقرب من الحدود البولنديّة، ثمّ ما يلبث أنْ ينعطف نحو روسيا البيضاء بحثاً عن المغامرات، بعد ذلك يتدفّق «بريبيات» بغزارةٍ عبر أهوار البينسك، فيحوّلها إلى لوحاتٍ مائيّةٍ برّيّةٍ ما إنْ يبدأ الجليد بالذّوبان. لكن نهر «بريبيات» يعود في نهاية طريقه إلى أوكرانيا من جديد، ويصبُّ في بحيرة سدّ كييف على بُعد بضعة كيلومتراتٍ جنوب مفاعل «تشرنوبيل»، والمدينة التي تقع في هذا المكان مازالت تحمل اسم النّهر، على الرّغم من أنّها لم تعُد في حاجةٍ إلى اسمٍ بعد الآن.

Telegram:@mbooks90

لم تعش مدينة «بريبيات» سوى ستّة عشر عاماً، لكنّ روحها لم ترقُد في سلام بعد، بل ما زالت تهيم في الأنحاء كما لو كان لديها بعض المهام العالقة على وجه الأرض. إنّ مدينة «بريبيات» لم تفنَ، بلْ تعرّضت في شبابها إلى هجومٍ من قِبَل عدوٍّ خفيٍ، رحل عنها سكّانها بلا وداعٍ ظنّاً منهم أنّهم سيعودون إليها في وقتٍ قريب، لم

يترك سكّان مدينة بريبيات وراءهم سوى بيوتهم التي ابتلعتها الغابات، وظلّت على الرّغم من ذلك تحكي قصص سكّانها القدماء.

ما زالت دفاتر وكتب التّلاميذ مفتوحةً على مكاتبهم في المدارس المهجورة، وما زالت ألعاب الأطفال متناثرةً في الحضانات كقطع «بازل» لم يقُم أحدٌ بتركيبها بعد، تجعل كلّ من يراها يظنّ أنّ الأطفال سيعودون إليها عمّا قريب؛ كي يواصلوا اللّعب بها، ولكنّ كلّ شيءٍ قد أصبح مُغطّى بطبقةٍ سميكةٍ من التّراب الرّماديّ اللّزج كما يحدث للأشياء التي تظلّ هامدةً لمئات السّنوات فوق الأسطُح المنسيّة.

«بريبيات» مدينة أشباح.

في هذا المكان، داخل حدود أوكرانيا حاليّاً، والاتّحاد السّوفييتيّ سابقاً، وقعت قبل ثلاثين عاماً أكبر كارثةٍ نوويّةٍ على مَرّ التّاريخ نَجَمَت عن إخفاقٍ بشريٍّ، وتسبّب الغبار الذّرّيّ الذي تصاعد من المفاعل النّوويّ بوفاة بعض سكّان المدينة على الفور، ومنهم من مات ميتةً أليمةً بعد فترةٍ قصيرةٍ، وما زال الكثيرون يعانون حتّى يومنا هذا من أمراضٍ خطيرةٍ جرّاء هذا الحادث؛ وهذا يعني أنّ سكّان «بريبيات» جميعهم وقعوا ضحيّةً لهذا الحادث بطريقةٍ، أو بأُخرى. أعلنت تلك الكارثة عن قدومها في إحدى ليالي نيسان/أبريل الرّبيعيّة بانفجارٍ مُدوٍّ تبعه صمتٌ قاتلٌ استمرّ إلى الأبد، ومنذ ذلك الحين لم تغادر الكارثة المكان قطّ.

كانت «بريبيات»، على غير المتوقّع، موطناً للعديد من الأُسَر الشّابّة؛ ذلك أنّها كانت قد بُنِيَت من أجل مهندسي وعمّال المُفاعل المُجاور خاصّةً، دفعهم الأمل إلى هنا، فهُم الرُّوّاد المختارون من قِبَل الحكومة السّوفييتيّة الذين جاءوا إلى هذا المكان رغبةً في تحقيق إنجازٍ متميّز، مستعينين في ذلك بعلمهم، ومهاراتهم، والتّكنولوجيا الحديثة. تحدّثت كثيرٌ من التّقارير عن مدى بهجة وطموح تلك المدينة الشّابّة، بل كان من ينجح من السّوفييت آنذاك في الانتقال إلى «بريبيات» يكون قد حقّق إنجازاً في حياته.

كان فصل الشتاء الذي مرّ على سكّان «بريبيات» ذلك العام شديداً وقاسياً؛ ولذلك، فإنّهم في تلك الليلة من شهر نيسان/أبريل، كانوا ينتظرون قدوم الرّبيع الذي هلّت بشائره في كلّ مكانٍ بصبرٍ نافد، ويتطلّعون إلى السّوق الذي يُقام في شهر أيار/مايو من كلّ عامٍ من دون أن يدركوا أنّه سيكون آخر شتاءٍ يشهدونه في مدينتهم الحبيبة. كانت عَجَلة الملاهي ذات القوارب الصّفراء الّليمونيّة قد نُصِبَت بالفعل في قلب المدينة استعداداً لسوق أيار/مايو، وبَدت كمخلوقٍ عملاقٍ، طيّب القلب، لديه آلاف الأذرُع، ويحمل في كلّ يدٍ من أياديه وغداً لسكّان «بريبيات» الذين اعتصرتهم البرودة.

لم يُدرك أحدٌ من سكّان المدينة أنّ هذا العملاق أيضاً سيقف عاجزاً أمام مصيرهم الوشيك، الذي فاق في وحشيّته أيّ تصوُّر، ولم يتخيّل أحدٌ أنّهم سيضطرّون إلى الفرار من المدينة، حتّى قبل أن تدور عَجَلته ولو مرّةً واحدةً، ولم يتصوّر أحدٌ أنّ الموت لن يُمهل بعضهم سوى بضعة أشهُرٍ، أو ربّما أيّام.

مثل وحشٍ ضخمٍ مخيفٍ أدركت الكارثةُ سكّانَ «بريبيات» من دون سابق إنذارٍ، وألحقت بهم الألم والعذاب، ولكنّ رهبة الموت لم تتسلّل فقط إلى سكّان المدينة، بل امتدّت مَخالب هذا الوحش المُخيف إلى ملايين آخرين في أنحاء العالم. راح الجميع يتساءلون ما إن كان التّلوُّث الإشعاعيّ سيصل إليهم أيضاً، وعَجِز الآباء عن الإجابة عن أسئلة أبنائهم؛ هناك من اتّخذ من هذه الكارثة نذيراً لنهاية العالم الوشيكة، وهناك من تملّك منه اليأس وانتحر.

حتّى الخبراء عَجزوا عن استيعاب أثر هذه المأساة على كوكب الأرض. تضامن سكّان الشّعوب من أنحاء العالم جميعها معاً، وصاروا مثل الجسد الواحد الذي يترقّب الأحداث، وهو يرتجف خوفاً ورُعباً، وخيّمت على العالم أجمع حالةٌ من الذُّعر والصّمت القاتل.

ولكنّني لم أكُن واحدةً من هؤلاء الذين سيطرت عليهم تلك الحالة، على الرّغم من أنّ هذه الكارثة النّوويّة كانت قد اخترقت شاشات التّلفاز بصورها البشعة والصّادمة حتّى وصلت إليّ، إلّا أنّ اليّد الخفية التي كانت في رأسي كانت تضغط كل هذه الصور وتختزلها في بيكسل واحدة، ثم تحفظها بعيداً في درج خاص بالموضوعات غير المهمة. كان عالمي آنذاك لا يزال صغيراً، صغيراً جدّاً، ولكنّه ضيّقٌ ومزدحمٌ إلى أبعد الحدود، كالثّقب الأسود في الفضاء الواسع الذي يمتصّ كلّ شيءٍ بداخله فلا يبقى منه شيء.

كان عالمي الصّغير ينحصر في أسرتي: أبي، وأمّي، وأخي الأكبر، وأخي الأوسط، وأختي الصُّغرى، وأنا. كنّا في تلك الفترة قد جئنا حُجّاجاً من أصفهان، وعلقنا في مأساتنا التي يعجز عنها الوصف.

لحظة وقوع الكارثة كنّا في الحال قد وصلنا إلى ألمانيا، ووجدنا أخيراً، وبعد أربعة عشر شهراً من الهروب، مكاناً في مقدورنا أن نستريح فيه؛ كنّا قد حصلنا في «هايدِلبرج» على سكنٍ اجتماعي، عبارة عن شقّةٍ صغيرةٍ من ثلاث غُرف، وكانت هذه الشّقّة هي الملاذ الآمن، أو بالأحرى الفقاعة المنعزلة التي اختبأنا فيها لنستجمع قوانا، ونجد أخيراً الفرصة لتوديع وطننا واستيعاب ما حدث لنا.

كان عليّ أن أركب القطار المجهول يوميّاً، وأحتمل الطّريق الطّويل إلى المدرسة، وأستوعب آلاف الكلمات الأجنبيّة، وكان علينا أن نتعلّم لغةً جديدةً، ونستكشف العالم الأوروبيّ الجديد الذي طالما تُقنا إليه، وكان عليّ أن أعثر على جِنيّةٍ طيّبةٍ ترافقني بلا قيدٍ ولا شرطٍ؛ لتمنحني الأمل، وتخفّف عنّي، وكان عليّ أن أتفهّم عادات وتصرّفات الغرباء من حولي في هذه البلاد الغريبة.

كما كان عليّ أن أفهم الخطابات والمعلومات الكثيرة التي كانت المدرسة تُرسلها إلينا، وأن أترجمها لأبي وأمّي، وكان عليّ أن أحتمل تصرّفات زملائي العدوانيّة والجارحة، ومضايقتهم لي من دون أن أتمكّن من الرّدّ عليها.

وكان علينا أنْ نعتاد أنا ومعدتي الطَعام الرّتيب والغريب الذي كانوا يُقدّمونه لنا في كافيتريا المدرسة، وأنْ أعتاد أيضاً الفواكه والخضروات كلّها التي كانت تبدو شهيّةً، لكنْ لم يكن لها طعم، وكان عليّ أنْ أعتاد الأرزّ الذي لا تفوح منه أيّة روائح عطريّة، وهذا الكمّ الهائل من البطاطس، ومذاق المشروبات شديدة الحلاوة.

كان علينا أنْ نتعلّم كيف نُفرّق بين الخطابات المُرسلة من السُلطات وبين الإعلانات التي توضع لنا في صندوق البريد، وأنْ نفهم لغة ونظام السُلطات في جمهوريّة ألمانيا الاتّحاديّة، وأنْ نعكف يوميّاً على ملْء استماراتٍ، وأنْ نسلّمها في الموعد المحدّد، كما كان علينا أيضاً أنْ نحرص على التّوقيع في المكان الصّحيح.

ليس هذا كلّه فقط، بلْ كان علينا أنْ نحتمل موشّحات الإهانة التي كان بعض الكبار ينهالون بهَا علينا، هؤلاء الذين كانوا يأملون في أن تصيبنا مصيبة لتخلّصهم منّا، وكان علينا أيضاً أنْ نحتمل تعدّي الآخرين في صمتٍ حين يسمحون لأنفسهم بالتّربيت على أكتافنا ولو كان بنيّةٍ طيّبة.

لمْ يبقَ في حياتي وعائلتي مكانٌ لكارثة القرن.

وهكذا فاتتنا كارثة تشرنوبيل.

الجزء الأوّل

إيران

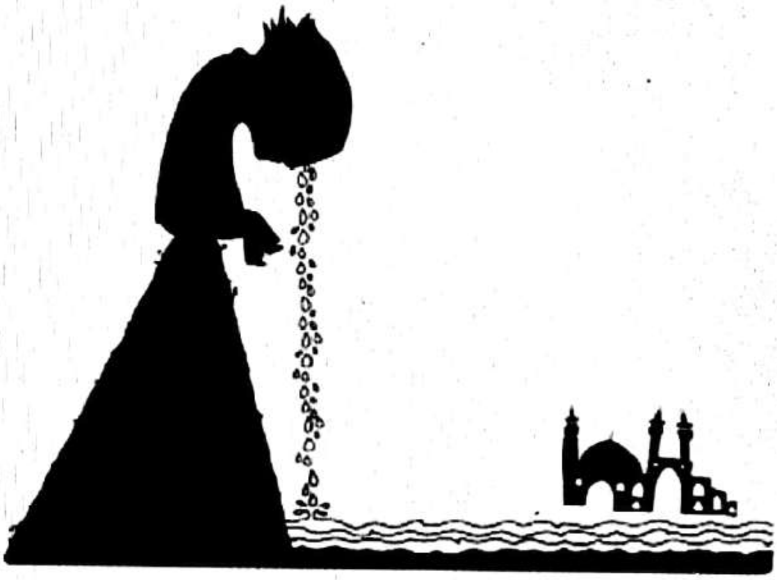

أصفهان
ISFAHAN

تبدو إيران من الجوّ على هيئة قطّةٍ جالسةٍ تلتفت إلينا برأسها، وتنظر نحونا، وتحمل هذه القطّة على ظهرها بحر قزوين الواسع، وتمتدّ سلسلة جبال «زاغروس» الشّاهقة بين كفّيها الأماميّتين بمحاذاة بطنها النّاعم، ومن هذا المكان بالتّحديد، ينبع نهرٌ عظيمٌ سمّاه الفُرس «زاينده رود»؛ ويعني: «النّهر الواهب للحياة»، وتظلّ مياهه تتدفّق بغزارةٍ لآلاف الأمتار أسفل الجبل.

وما إن يصل النّهر إلى سفح الجبل حتّى تسري مياهه وسط مدينةٍ عزيزة النّفس اسمها «أصفهان»، فيقع في حبّها، ولكنّ علاقة الحُبّ هذه لا تستمرّ طويلاً؛ لأنّ النّهر الواهب للحياة يموت بمجرّد رحيله عن المدينة، مثل اليعسوب بعد زواجه من ملكة النّحل، وفي تلك المنطقة تتحوّل الأراضي

الواسعة إلى مستنقعاتٍ خطرةٍ، وتتكوّن بحيرةٌ مالحةٌ شاسعةٌ تبدو من أعلى كالبقعة البيضاء المضيئة، وهي التي ينبض عندها قلبُ القطّة.

يُحكى أنّه قبل أكثر من مئة عامٍ كان هناك شابٌ أصفهانيٌ اسمه «عبّاس عليّ»، كان «عبّاس عليّ» شابّاً عزيز النّفس استطاع أن يتولّى إدارة أكبر مصنع ملحٍ في أصفهان، وأن يحظى بمنزلةٍ خاصّةٍ لدى الجميع؛ لأنّه كان واحداً من القلائل الملمّين بالقراءة .والكتابة، وفي أحد الأيّام، وبينما هو جالسٌ في مكتبه، منشغلٌ بعمله، وشوالات المِلح مكدّسةٌ حول مكتبه، جاءه موظّفون من بلاط الإمبراطور، وقاموا بتسليمه رسالةً تقول:

«السّيّد المحترم عبّاس علي، نحن رُسُل الشّاه رضا بهلوي، شاه الفُرس العظيم، وجئنا لنبلغكم باسم الشّاه رضا بهلوي، شاه الفُرس العظيم، وبناءً على أوامره، أنّه ابتداءً من اليومَ، ينبغي لكلّ مواطني بلاد فارس حمل لقبٍ إلى جانب أسمائهم الشّخصيّة، وسيحصل كلُّ مواطنٍ على دفتر قيدٍ عائليّ».

دُهِشَ الشّاب «عبّاس علي»، أو «بابا عبّاس علي» كما سيناديه أحفاده بحُبٍّ في المستقبل البعيد، ثمّ سأل بأسلوبٍ مهذّبٍ قائلا: «سامحوني على جهلي العظيم، وسؤالي التّافه، ولكنْ ماذا تقصدون بدفتر القيد العائليّ؟».

فأجابه رُسُل الشّاه بأنّ دفتر القيد العائليّ هو الدّفتر الذي يُدوَّن فيه اسم كلّ مواطنٍ، واسم أبويه وعائلته على مَرِّ العصور، وهو ما سيُسهّل التّمييز بين النّاس، ثمّ خاطبوه قائلين: «ونرجوك لذلك أنْ تفكّر سريعاً في لقبٍ لك؛ لأنّنا قطعنا مسافةً طويلةً بالفعل، ولا تزال أمامنا مسافة أطول، وعمّا قريبٍ ستغرب الشّمس بلا هوادة».

تفاجأ «عبّاس علي» بمطلبهم، وكان في حاجةٍ إلى التّفكير أوّلاً في لقبٍ. راح ينظر حوله ويفكّر، بينما يضغط على شفتيه ويفرك أنفه في حيرةٍ، ثمّ ما لبث أنْ نظر إلى الموظّفين المنهكين، وقال لهم: «حسناً، حين أنظر حولي، لا أرى سوى مِلح. كان أبي

من تجّار المِلح، وكذلك جدّي، وأنا اليوم أكسب قوتي وقوت أبنائي من تجارة هذا المِلح الرّائع؛ لذلك أريدهم أن ينادونني بـ«نمكي زاده»؛ أي: «ابن المِلح»، أو «وليد المِلح»، ولأنّني من أصفهان، أريد للقبي أن يكون «نمكي زاده الأصفهانيّ».

هكذا نشأ اسم عائلة أمّي، التي ما زالت تذكر إلى الآن كيف كان جدُّها «عبّاس علي»، أو «بابا عبّاس علي» يروي لهم تلك القصّة.

أطلق الأصفهانيّون اسم «گاوخونی» على تلك المستنقعات القريبة من البحيرة المالحة، وعلى الرّغم من أنّ المياه هنا ليست عميقةً، إلّا أنّها مُميتة، فتجد كلّ أمٍّ تحذّر طفلها قائلةً: «لو خطوتَ خطوةً واحدةً في المكان الخطأ، ستغوص في الطّين وتختفي إلى الأبد. ابتعِد عن مستنقعات «گاوخونی»، ولا تقترب من النّهر أكثر من اللّازم! فمياهه هي التي تغذّي مستنقعات گاوخونی».

إنّ تدفُّق نهر «زاينده رود» بغزارةٍ عبْر أصفهان، وعُلوّ منسوبه في كثيرٍ من الأحيان، كان سبباً في غرق بعض النّاس؛ كنّا نسمع كثيراً عن أشخاصٍ جرفهم النّهر بعيداً إلى مستنقعات «گاوخونی»، حيث اختفوا إلى الأبد، وعلى الرّغم من هذا كلّه، فقد عشق الأصفهانيّون نهر «زايندة رود»؛ لأنّه كان مصدر فرحتهم، ونقطة التقائهم. منذ مئات السّنوات والنّاس يمرّون فوق جسوره المتعدّدة جيئةً وذهاباً، ولعلّ أجملها هو جسر «سي وسه بل»، أو «جسر الثّلاثة وثلاثين قنطرة»، الذي صار عمره الآن أربعمئة عام؛ إنّه جسرٌ عريضٌ ومُغطّى، تؤدّي القناطر المفتوحة في جدرانه إلى المياه مباشرةً عن طريق سُلّم، كان الأصفهانيّون يذهبون إليه لقضاء أوقاتهم فيما يُسمّى بـ«الشّاي خانة»، أو «بيوت الشّاي»، وللتنزُّه وسط أجواء الاحتفاليّة بين الغناء، والرّقص، ودقّ الطّبول، وعلى هذا الجسر كان العشّاق يلتقون في المساء، حين تُضاءُ القناطر من أسفل، وتنعكس صورة الجسر على مياه النّهر لتبدو كآلاف حبّات التّرتر المتلألئة.

شهد هذا الجسر أيضاً، وكذلك الحدائق المُطلّة على النّهر، على قصّة حُبّ أبي

وأمّي، التي بدأت بتعارُف بين طبيبٍ شابٍ وممرّضةٍ شابّةٍ في إحدى المستشفيات.

كان النّاس يتردّدون على الجسر بعد حلول الظّلام، فيأتون من بيوتهم مُرتدين ملابسَ أنيقةً للتنزُّه والتجوُّل في الأنحاء، حينها يدرك البائعون أنّ ساعة الرّزق قد حانت، فينادي كلٌّ منهم على بضاعته بأعلى صوتٍ، وبعباراتٍ لحنيّةٍ متكرّرةٍ قائلاً: «*باقالالالا*.. جگرررر.. *بلالللل*»، وتفوح روائح الفول الأخضر، والكِبدة، والذّرة المشويّة، فينجذب النّاس إلى أكشاك الطّعام، في الوقت الذي تعلو فيه صيحاتُ الأطفال في مرحٍ وسعادةٍ، بينما تحاول الفوانيس والنّجوم أن تطغى كلٌّ منها بنورها على الأُخرى، وتتنزّه العائلات فوق الجسر طوال اللّيل، ويحرص الآباءُ على شراء المثلّجات اللّذيذة لصغارهم، وقتها تدبُّ الحياة في نهر «زاينده رود» الواهب للحياة. كان هذا هو مكاني المفضّل آنذاك، وأنا في الرّابعة من عمري.

ذات يومٍ، جاءت قريبتي المفضَّلة لزيارتنا لتستمع هي وزوجها إلى المذياع مع أبي وأمّي، وكانت هذه هي أوّل مرّةٍ أراهم فيها لا يلعبون بورق الشّدّة، وبعد أنْ انتهت نشرة الأخبار، قام أبي بإغلاق المذياع.

ثمّ علّق قائلاً: «هذا الشّاه استنفد صبرنا». كان يتحدَّث عن إمبراطور إيران الذي لقَّب نفسه بـ«الشّاه محمد رضا بهلوي، شاهنشاه، آخر أباطرة عرش الطّاووس». كان الكبار يفخَرون بي؛ لأنّني كنت أحفظ اسمه كاملاً. تحدَّثوا عنه كثيراً في ذلك اليوم، ولكنْ بسوء. كنتُ دائماً أراه رجُلاً عظيماً، وزوجُه «فرح ديبا» أجمل إمبراطورةٍ في العالم، وكان كلٌّ منهما لديه تاجٌ رائعٌ لا مثيل له، بلْ كنتُ كثيراً ما أرسمهما مع أبنائهما من الأمراء والأميرات.

أضافت أمّي قائلةً: «تمادى الشّاه كثيراً. يعيش في ترفٍ ونعيمٍ من خيرات البلاد، بينما يعاني النّاس من الفقر. تكفي نظرةٌ واحدةٌ إلى قصوره»، ثمّ استطردت قريبتي قائلةً: «يجب أن نفعل شيئاً لمواجهة هذا الأمر. قلنا ما يكفي، وآن الأوان لنفعل شيئاً»، ثمّ نهضت من مكانها، وقالت: «سأذهب إلى ميدان الشّاه الآن، وأهتف بصوتٍ

عالٍ: من منكم معي؟».

ردَّ عليها أبي بحزمٍ: «هذا صحيح، تلك فرصتنا الوحيدة»، ثمّ نهض من مكانه، ونظر إليّ، كنتُ راقدةً على بطني على الأرض، وأسند رأسي بين كفيّ مستمعةً إلى حديث الكبار. قال لي: «ستأتين معنا، اذهبي وارتدي حذاءكِ».

فسألته أمّي: «أليس هذا خطراً عليها؟».

ردّ عليها أبي قائلاً: «ألم تسمعي ما قيل في المذياع؟ هناك عائلاتٌ في الميدان، وهُم لن يطلقوا النّار على الصّغار بالتّأكيد».

ذهبنا بالفعل إلى «ميدان الشّاه»، كنت أحبُّ هذا الميدان كثيراً؛ لأنّه كان ميداناً واسعاً، وكان بإمكاني أنْ أنظر فيه إلى الأفق، كان أخي الأوسط قد حسب مساحته مع أبي، وتوصّلا إلى أنّ مساحة هذا الميدان ينبغي أن تكون في مثل حجم ثلاثة عشر ملعباً من ملاعب كُرة القدم، وعلى الرّغم من أنّني لمْ أكن قد رأيت ملعب كُرة قدمٍ من قبل، إلّا أنّني كنتُ أعرف أنّ مساحته كبيرةٌ جدّاً؛ لأنّني كنتُ أثق بأخي ثقةً عمياءَ، وأصدّق ما يقوله كلّه، وعلى الرّغم من أنّه لمْ يكن يكبرني سوى بعامٍ واحدٍ، إلّا أنّه كان يرافقني في كلّ مكانٍ مثل ملاكٍ حارس. كان نحيفاً، وخفيف الحركة، ومَرحاً، ورياضيّاً، ومحبوباً، وكان يتصدّى لِما يراه حوله كلّه من ظلمٍ بحكمةٍ، وحماسٍ مُغدٍ، ويهزم خصومه بخفّة دَمه وسِحره، كما أنّه كان شديد الذّكاء؛ فلا يتناول حلوياته كلّها دفعةً واحدةً أبداً، وكان هذا الأمر دائماً ما يثير إعجابي به، فأسأله في كلّ مرّةٍ عن السّبب قائلةً: «لِمَ لا تتناولها كلّها دفعةً واحدة؟».

فيُجيبني في كلّ مرّةٍ بصبرٍ وحكمةٍ قائلاً: «أحتفظ بما تبقّى لوقت الحاجة».

انبهرتُ بإجابته، ونويتُ في المرّات القادمة أنْ أحتفظ ببعض الحلوى من أجل «فترات الحاجة»، على الرّغم من أنّني لم أكن أدرك حينها المعنى الحقيقيّ لهذا

اللفظ.

في ذلك اليوم امتلأ الميدان، الذي كان بلا شك في حجم ثلاثة عشر ملعباً من ملاعب كُرة القَدم، بحشودٍ من البشر يهتفون بعباراتٍ لا أفهمها.

أخذتُ أجذبُ يَد أبي، وأقول له: «لا أرى شيئاً يا بابا. أنا خائفة!».

ولكنّني رأيته يقف في مكانه، وينظر إلى الحشود بعيونه البرّاقة، ولا يشعر بيَدي الصّغيرة، وهي تجذب يَده، فقلت له: «بابا، أيمكنك أن تحملني فوق كتفيك؟ أرجوك!».

أفاق في تلك اللّحظة من شروده، وردّ عليّ قائلاً: «آه، طبعاً!». وحملني بكفّيه الضّخمتين، وأجلسني على كتفيه. كنتُ دائماً أشعر، وأنا جالسةٌ فوقهما؛ أنّني على مَتن سفينةٍ ضخمةٍ لن تغرق أبداً.

ما إنْ جلستُ فوق أكتافه، وشممتُ شَعره حتّى تلاشى شعوري بالخوف. غرزتُ أنفي بين خصلات شَعره الأسود النّاعم، وفتحت عينيّ إلى أقصى ما يمكن لعيون طفلٍ في الخامسة من عُمره أن تصل إليه.

رأيتُ من مكاني هذا بحراً من البشر، أينما نظرتُ لم أكن أرى سوى حشودٍ من البشر في كلّ مكانٍ، من يميني، ويساري، ومن خلفي، لا شيء سوى بشر، حتّى لا شوارع، أو أشجار، أو سيّارات. النّاس في الميدان لم يتركوا شيئاً إلّا تسلّقوه؛ رأيتُ أناساً يتدلّون من الأشجار بأعدادٍ تفوق قُدرة احتمالها، ورأيتُ آخرين يرقصون فوق أسطح السّيّارات ويطبّلون، وسَرَت عبر الحشود موجاتٌ متكرّرةٌ أدركتنا أنا وأبي أكثر من مرّة.

تذكّرت حينها عطلتنا الأخيرة التي سافرنا فيها مع أجدادنا، وأقاربنا، وأبنائهم

إلى بحر قزوين، وركبنا أحد القوارب السّريعة. اضطّررتُ وقتها إلى أنْ أسدّ أذنيّ من صوت ضجيج المُحرّك العالي. رأيت أمواج البحر، وهي ترتطم بمقدّمة القارب، وتتدفّق برغوتها الكثيفة على جانبيه، ثمّ أطفأ السّائق المُحرّك فجأةً، وظلّ القارب في مكانه من دون حراكٍ، وما لبثت المياه أنْ هدأت تماماً. طلب الكبار إلى الجميع الالتزام بالهدوء؛ ليتسنّى لنا الإنصات إلى سكون البحر. بدأ القارب يرتفع إلى أعلى، ثمّ يهبط مرّةً أُخرى كلّما اصطدمت به موجة. شعرتُ به يتمرجح على سطح المياه حين أغمضتُ عينيّ كما طلب إليّ أخي الأكبر. حزنتُ كثيراً حين بدأ الكبار يتحدّثون مُجدّداً، وقام سائق القارب بتشغيل المُحرّك.

كنّا وسط الأمواج مرّةً أخرى. كلّما أدرَكَتْ أبي موجةٌ مرجحتنا ورفعتنا إلى أعلى أغمضتُ عيني، وتركني أبي جالسةً على كتفيه فترةً طويلةً، وحين غلبني التّعب، حملني على ذراعيه، وعاد بي إلى المنزل.

في تلك اللّيلة حلمتُ ببحرٍ تغرّد أمواجه، وتتغنّى بشعارات الثّورة: «لا إله إلا الله، فلْيحيا المُرشد الأعلى!».

عندما جاءت جدّتي من طَهران إلى أصفهان لزيارتنا في عطلة نهاية الأسبوع رحتُ أستفسر منها عمّن يُسمّى بـ«المُرشد الأعلى».

- أخبريني يا جدّتي، من هو المُرشد الأعلى؟

أجابتني: «إنّه رجلٌ عجوزٌ حكيمٌ يؤمن بالله. أتتذكّرين حين حكيتُ لكِ عن النّبي محمّد الذي كان رقيق القلب؟».

رددتُ قائلةً: «نعم، هذا الذي كان يتقاسم ما لديه من تمرٍ وملابس مع الفقراء».

- نعم. وقائدنا هذا هو من أحفاد النّبيّ؛ ولهذا يجوز له أيضاً أن يرتدي عِمامةً

سوداء، فهو من «الأشراف»، وسليلٌ مباشرٌ للنبي محمّدٍ حامل رسالة الإسلام.

- وهل الذين يتظاهرون في ميدان الشّاه، يا جدّتي، يريدون أن يصبح المُرشد الأعلى إمبراطوراً جديداً لإيران؟

ضحكت جدّتي، وقالت: «نعم يا بُنَيّتي، ولكنّ هذا لن يحدث بهذه السّهولة؛ لأنّ الشّاه يكره المُرشد الأعلى، ولذلك قام بطرده من البلاد، ونفيه إلى مكانٍ بعيدٍ، وهذا ما أغضب النّاس، وجعلهم يهتفون بأعلى أصواتهم في الميدان، ولكنْ لا داعي للخوف، إنّهم يريدون فقط أن يعود قائدنا. أتفهمينني؟».

- وحين يصبح المُرشد الأعلى هو الإمبراطور الجديد، وينتقل للعيش في القصر، هل سيسمحون للشّاه وأسرته أنْ يسكنوا في القصر أيضاً؟

ردّت عليّ جدّتي بنبرةٍ جادّةٍ قائلةً: «الخُميني لا يريد أن يعيش في القصر من الأساس؛ فهو لا يحتاج إلى هذا كلّه، ولن يصبح إمبراطوراً، ولن يرتدي تاجاً، بل سيحتفظ بعمامته السّوداء».

أُعجِبتُ بهذا الرّجُل العجوز الطيب.

تتابعت على إيران منذ ذلك الحين أحداثٌ استثنائيّة. كان النّاس يحتشدون نهاراً في الشّوارع، ويصعدون ليلاً أسطح بيوتهم، وسرعان ما بدأت أُسرتي هي الأُخرى تصعد كلّ ليلةٍ سطحَ المنزل، وتبقى هناك حتّى وقتٍ متأخّرٍ من اللّيل. كنتُ أرى النّاس يقفون فوق أسطح منازلهم في كلّ مكانٍ، ويهتفون الشعارات نفسها، بمن فيهم جيراننا وأبناءهم.

ذات يومٍ قال لنا أبي: «هذه هي الثّورة يا أبنائي! انظروا حولكم جيّداً. إنّ هذا الذي ترونه أمامكم حدثٌ نادراً ما يتكرّر»، ثمّ ضحك.

كنّا نحن الصّغار سعداء أيضاً، ونهتف بأعلى أصواتنا.

كان أخي الأكبر يُراهننا على أنّه يستطيع أنْ يهتف بصوتٍ أعلى من أصواتنا معاً.

- أتراهنانني أنّه يمكنني الهُتاف أعلى من أصواتكما معاً؟

كان شخصاً رائعاً، دائماً ما يأتي بأفكارٍ رائعةٍ للّعب. كان هو من يقرّر اللّعبة في كلّ مرّةٍ، وهو من يضع قواعدها، وكنّا أنا وأخي الأصغر منه سعداء بأفكاره الكثيرة، لمْ يحدث يوماً أنْ لعبنا معه اللّعبة ذاتها مرّتين؛ لأنّه كان يأتينا بأفكارٍ جديدةٍ في كلّ مرّةٍ، ولذلك كنّا واثقين من أنّ نبع أفكاره لنْ ينضب أبداً. كان أخي هذا يعلم جيّداً ماذا يريد أنْ يصبح في المستقبل، أراد أنْ يصبح من أصحاب مصانع الشّوكولاتة.

- عندما أصبحُ من أصحاب مصانع الشّوكولاتة يوماً ما، سأمرُّ يوميّاً بين ماكيناته؛ لأتناول ما أريده من الشّوكولاتة، وسأرسل لكلّ طفلٍ صندوقاً ممتلئاً بالشّوكولاتة في عيد ميلاده، ربّما سيصل عددها إلى مئات الصّناديق يوميّاً.

كنتُ سعيدةً برغبة أخي في امتلاك مصنعٍ للشّوكولاتة في المستقبل؛ لأنّني كنتُ واثقةً من أنّه سيعطيني نصيباً منها أيضاً.

اخترع لنا أخي الأكبر خلال فترة الثّورة كمّاً هائلاً من الألعاب الجديدة والرّائعة لنلعبها في الأوقات التي نقضيها فوق سطح المنزل. كنّا نضحك كثيراً، ونهتف بأعلى أصواتنا، حتّى نجد أنفسنا في اليوم التّالي نتحدّث بأصواتٍ مبحوحة.

كنتُ أشعر خلال الثّورة أنّ إخوتي في عطلةٍ صيفيّة؛ كنّا نقوم بأنشطةٍ رائعةٍ يشارك فيها أفراد العائلة جميعهم، فلمْ يكن أبي منشغلاً، ولمْ يتعيّن على أشقّائي الكبار الذّهاب إلى المدرسة، ربّما توقّفوا من أنفسهم عن أداء واجباتهم المدرسيّة،

وكان أفضل ما في فترة الثّورة هو أنّهم كانوا يسمحون لنا بالذّهاب إلى الفراش في وقتٍ متأخّرٍ من الّليل. كم كانت الثّورة ممتعة!

على مدى الأشهر التي استمرّت خلالها الثّورة كان الكبار يستمعون إلى إذاعةٍ محظورةٍ في إيران، اسمها «هيئة الإذاعة البريطانيّة»، أو باختصار: «إذاعة البي بي سي»، وكانت برامج هذه الإذاعة تروّج للثّورة، وتتحكّم بمسارها، فكانت توجّه النّاس للتّظاهر في أماكن معيّنةٍ، وبطُرقٍ معيّنة.

وذات يومٍ دعت «إذاعة البي بي سي» سكّان أصفهان جميعهم للتّوجُّه بسيّاراتهم إلى تقاطع طُرقٍ مُحدّدٍ، وعندما سمع أبي هذه الفكرة، وكان قد أصبح في هذه الأثناء طبيباً مشهوراً وثريّاً، تحمّس لها كثيراً، واتّصل بأمّي على الفور، وقال لها: «هيّا! قولي للأولاد أنْ يرتدوا ملابسهم بسرعة، وعليكِ تحضير كمّيّةٍ كافيةٍ من الأكل والمشروبات، وسأغلق العيادة الآن».

فسألته أمّي بنبرةٍ قلقة: «ماذا حدث؟ أين سنذهب؟ لم ينتهِ الأولاد من واجباتهم المدرسيّة بعد».

فردّ عليها أبي ضاحكاً: «بالطّبع حدث شيء! وليس أيّ شيء، بل شيءٌ رائعٌ! سنقوم اليوم بثورة. دعينا لا نطيل في الحديث. سآتي لاصطحابكم على الفور».

في ذلك اليوم وقفنا بسيّارتنا وسط زحامٍ مروريٍّ شديدٍ علقنا به عدّة ساعات، لكنّها كانت ساعاتٍ ممتلئةً بالبهجة الممزوجة بالإثارة والحماس؛ لأنّ تلك المظاهرة سرعان ما تحوّلت إلى عيدٍ شعبيٍّ ضخمٍ محظورٍ من قِبَل السّلطات. كان كلُّ سائقٍ من سائقي السّيّارات يحاول جاهداً أنْ يعزف أغنيةً بزمّور سيّارته، بينما انهمك المارّة في الرّقص والتّطبيل. كان الباعة الجائلون يركضون بلا كللٍ بين السّيّارات، ويبذلون قصارى جهدهم لبيع أيّ شيءٍ لركّابها؛ سواءٌ كان علكة أم مناديل، أو مياه، أو أربطة أحذية، أو فرش شَعر، أو محمّصات من فستقٍ ولوز، أيّ شيءٍ قد يخطر في بال

المرء، بل كان من بينهم رجلٌ عجوزٌ يبيع ريش الطّواويس! من جانبهم كان الرُّكّاب يشترون من هؤلاء الباعة بسخاءٍ في غمرة سعادتهم، ويغدقون أيضاً على العمّال الذين كانوا ينظّفون لهم زُجاج سيّاراتهم. لم يكن الكبار على طبيعتهم، بَدا أنّهم قد فقدوا عقولهم، ويفعلون أشياء غير مُعتادة. كان الجميع يشعر في غمرة هذه الأحداث بالانتماء وبوحدة صفوفهم ضدّ عدوٍّ مُشترك، ذلك العدو الذي صار مسموحاً لنا أنْ نلعنه ونشتمه بصوتٍ عالٍ على الرّغم من كوننا صغاراً، كان هذا العدوُّ هو الشّاه.

وفي اليوم التّالي سمعت الكبار يتحدّثون.

كان أبي حينها يخاطب أمّي قائلاً: «هذا مُذهل! أدّى الازدحام أمس إلى انهيار حركة المرور تماماً!».

فردّت عليه أمّي قائلةً: «ولِمَ سيُبالي الشّاه إنْ كان هناك ازدحامٌ مروريٌّ في أصفهان أم لا؟».

- ألم ترَيْ ما حدث؟ أمس اِنهار النّظام الدّاخليّ بالكامل، وقالوا في المذياع: إنّ الشّرطة وقفت عاجزةً أمام ما حدث. العديد من النّاس لم يذهبوا إلى أعمالهم، كما أنّ ما حدث أشعل غضب الباصريّين؛ لأنّ هذا الازدحام المروريّ عطّل سَير الشّاحنات من أصفهان وإليها، وهو ما حال دون وصول البضائع إلى الكثير من المحالّ بمنطقة السّوق. لكِ أنْ تتخيّلي كمّ الخسائر التي سبّبها هذا الانهيار المروريُّ للباصريّين؟ الأمر أشبه بجسد الإنسان حين يتوقّف قلبه جزءاً من الثّانية، فيفقد السّيطرة على جسده بضع لحظات. هؤلاء الباصريّون هُم من يدعمون الشّاه، وإذا غضبوا وتوقّفوا عن دعمه، فسينتهي أمره، ولن تكون أمامه أيّة فرصةٍ للنّجاة. لندعهم يتكبّدون المزيد من الخسائر بضع مرّاتٍ أُخَر، وسنجدهم عندئذٍ يحملون الشاه على أعناقهم إلى المنفى؛ لأنّه لم يعُد هناك من يريد التّعامل معهم على أيّ حال. كانت فكرة الانهيار المروريّ فكرةً عبقريّةً بلا شك!».

وفي إحدى اللّيالي رنّ جرسُ الهاتف، ورفع أبي السمّاعة، وكنتُ قد ركضتُ نحوه أنا الأخرى؛ لأنّ كلّ مكالمةٍ في الآونة الأخيرة كانت تحمل لنا أخباراً جديدةً، وضغطتُ أذني على سمّاعة الهاتف؛ لأعرف مَن المتّصل، فسمعتُ أحد أصدقاء أبي يقول له بحماسٍ شديدٍ: «اخرجوا بسرعة، وانظروا إلى السّماء، لقد تجلّى وجهه على البدر التّمام!».

فسأله أبي في حيرةٍ: «عمّن تتحدّث بالله عليك؟ من هذا الذي تجلّى على البدر التّمام؟».

ردّ عليه صديقه قائلاً: «ألم تستوعب ما قلت؟ أقصده هو، قائدنا الرّوحيّ، وخليفة الله على الأرض».

ترك أبي السمّاعة في تلك اللّحظة على المنضدة، ونادى علينا جميعاً، ثمّ أسرع وفتح شبّاك البلكونة، ونظر إلى السّماء، فإذا بعينيه تلمعان فجأةً، ووجههُ يُشرق، ثمّ صاح قائلاً: «هيّا بنا جميعاً، لنصعد السّطح، تجلّى وجه قائدنا على البدر التّمام!».

أسرعنا جميعاً إلى السّطح، وكان كلٌّ منّا -نحن الصّغار- يتسابق مع الآخر، ويدفعه، ويتشاجر معه للوصول إلى السّطح أوّلاً. توسّلتُ إلى أخي الأوسط أنْ يدعني أمرّ أوّلاً؛ كي أتمكّن من رؤيته، وركلته في قَدَمه.

ردّ عليّ قائلاً: «وأنا أيضاً أريد أن أراه. لا تدفعيني هكذا!». في نهاية الأمر، كان أكثر قوّةً منّي بكثير.

خاطبتنا أمّي قائلةً: «إذا لم تتوقّفوا عن الشّجار فستخلدون إلى النّوم». لذلك صبرتُ حتّى وصلنا أخيراً إلى السّطح، وكان هناك! نظرتُ إلى البدر السّاطع، فرأيتُ ظلّ وجهه من الجانب بعمامته ولحيته الطّويلة، ورأيتُ يديه أيضاً، وقد ضمّهما معاً، ورفعهما للدُّعاء.

صرخت قائلةً: «أستطيع أنْ أراه!». كنتُ أشعر بحماسٍ شديدٍ، وحين نظرتُ إلى أخي الأكبر، رأيتُه ينظر إلى السّماء ويبتسم.

قال أخي الأوسط متسائلاً: «أين هو؟ لا أستطيع أنْ أراه. أين تنظرون جميعاً؟ أين هو؟».

فالتفت إليه أحد الكبار، وقال له: «ششـ، أخفِض صوتك!».

كانت الأجواء ساكنةً وهادئةً على السّطح في تلك اللّيلة. رأيتُ المزيد والمزيد من الجيران يصعدون أسطح منازلهم، ويتهامسون، وهُم في منتهى السّعادة. كان بعضهم مذهولاً ممّا رآه، وبعضهم الآخر يصلّي، لكنْ لم يكن هناك أحدٌ يهتف. بَدا لي القمر في تلك اللّيلة كبيراً وساحراً، ونجوم السّماء مثاليّة كما لم أرَها من قبل.

- «حدثت معجزة!». هذا ما قاله لنا أبي في تلك اللّيلة.

بعدها غادر الشّاه إيران، واختار أنْ يعيش في المنفى، ووصل القائد المحبوب بالطّائرة من باريس إلى طهران، وبدأ الإيرانيّون يهلّلون، ويحتفلون، ويتوجّهون إلى الله بالدُّعاء. وتحقّقت بذلك أعظم أمنياتي.

ولكنّ الفرحة برحيل الشّاه لمْ تدم طويلاً؛ فأوضاع البلاد لم تتحسّن، بلْ على العكس، فما انتقده النّاس كلّه في عهد الشّاه ساء أكثر وأكثر، وبدأ المزيد والمزيد من النّاس يفقدون وظائفهم، ويخسرون مصادر دَخلِهم، كما أنّ سجون الشّاه لمْ تُغلَق أبوابها، بلْ أُضيفت إليها سجونٌ جديدةٌ، وكانت تلك السّجون تمتلئ في كثيرٍ من الأحيان بهؤلاء الذين كانوا يناضلون في سبيل الحُرّيّة في عهد الشّاه، وفي الوقت نفسه قام المُرشد الأعلى بسَنِّ عدّة قوانين جديدةٍ من المفترض أنّها تستند إلى أحكام القرآن.

بعدها بفترةٍ قصيرةٍ فوجئنا في عصر أحد الأيّام بزيارةٍ من قريبتي، وما إنْ فتحنا لها الباب حتّى اندفعت داخل المنزل. كان وجهها أحمرَ، وبَدا واضحاً عليها أنّها كانت تبكي.

أسرعت أمّي إليها، وسألتها: «ماذا حدث؟ ماذا حدث بالله عليكِ؟».

لمْ تستطع قريبتي أن تتفوّه بكلمةٍ، بل انهارت فقط على المقعد.

قالت لي أمّي: «أحضري كوب ماءٍ بسرعة». جريتُ إلى المطبخ، وأحضرتُ كوب الماء، وحرصتُ على أنْ أفعل كلّ شيءٍ بطريقةٍ صحيحةٍ، وأنْ أظهر بصورة الفتاة المُطيعة؛ لأنّني كنتُ على وشك دخول المدرسة. كان عليّ أن أنتظر فقط لحين انتهاء العطلة الصّيفيّة.

وحين عدتُ بكوب الماء كانت قريبتي قد بدأت تحكي بالفعل عمّا حدث.

سمعتها تقول: «أخذوها معهم بهذه البساطة».

فسألتها أمّي، وقد فقدت صوابها: «ولكن لماذا؟ ماذا فعلت؟».

- «قالوا إنّ غطاء رأسها انزلق قليلاً، وحين جاءت الحارسات أمزنها بضبط الشادور».

انفعلت أمّي، وقالت: «ما خطب هؤلاء النّساء! لا بدّ من أنّهنّ فقدن عقولهنّ، يستمتعن بقدرتهن على إثارة الرّعب والفزع في نفوس النّاس. هنّ مجموعةٌ من النّساء الرّيفيّات المحبطات اللّواتي فاتهنّ قطار الزّواج، وأصبح لهنّ الآن شأن».

ردّت عليها قريبتي قائلة: «إلى أين وصل بنا الحال؟ ماذا حدث لبلادنا الجميلة؟

أتتخيّلين أنّهم صفعوا الفتاة المسكينة عدّة مرّاتٍ حتّى نزفت من أنفها، فقط لأنّها، بحسب قولهم؛ ردّت عليهم بوقاحة؟ ثمّ جرجروها إلى السّيارة ورحلوا. اختطفوا الفتاة!». وانخرطت في البكاء مرّةً أخرى.

علّقت أمّي قائلةً: «يا إلهي! أرجو أن تعود حيّة. سمعتُ عن أناسٍ كثيرين تعرّضوا للخطف، مثل زوج السّيّدة «فهيمة» مثلاً. ولم يعُد بعد، على الرّغم من أنّه قد مضى على رحيله ثمانية أسابيع. لا أحد يعرف مكانه، وهُم لا يخبرون زوجه بأيّ شيء».

- «هذا صحيح. جُنّ جنوني حين جاءتني السّيّدة «جُلبان» بالخبر. أسرعتُ إلى نقطة الحراسة التّابعة لحيّنا؛ لأنّه لم يكن بإمكانها ترك رضيعها. هل ستصدقينني إنْ أخبرتكِ أنّهم سخروا منّي؟ وقالوا لي: إنّ الأمر لا يعنيني، وإنّهم لن يقولوا شيئاً، ولو جاءتهم أمّها بنفسها، وإنّ كلّ شخصٍ سينال العقاب الذي يستحقّه. أردتُ أنْ أعطيهم نقوداً، ولكنّهم أمروني بالانصراف. يا للسّيّدة جُلبان المسكينة. كيف تحتمل هذا!».

عرفتُ حينئذٍ أنّهم كانوا يتحدّثون عن «زيبا»، ابنة إحدى جارات قريبتنا، كانت فتاةً رائعةً، وكنتُ أحبّها كثيراً، وعندما كنّا نذهب لزيارة أقاربنا كنتُ أذهب إلى «زيبا» كلّما شعرتُ بالملل. كانت شابّةً رياضيّةً، وكنتُ كلّما ذهبتُ إليها سمعتُ منها قصصاً شائقةً جدّاً، حتّى إنّها كانت تسمح لي أيضاً بالبقاء معها عندما تأتي صديقاتها لزيارتها. كنتُ أعدّها أختي الكبرى. عندما سمعتُ ما حدث لها ركضتُ إلى غرفتي، كان خبر اختطافها صدمةً كبيرةً لي. لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي أسمع فيها عن حرس المُرشد الأعلى، كانوا يسمّونهم *«الباسداران»*، وكثيراً ما كنتُ أراهم في كوابيسي يطاردونني بينما أحاول الهرب منهم والنّجاة بحياتي.

لم يكن حرس *«الباسداران»* من أفراد الشّرطة، أو جنوداً، بل كانوا جيشاً آخر يحارب الأعداء في الدّاخل، وليس في الخارج، وكانت مهمّتهم تتمثّل في السّيطرة على شعب بلادهم، وإخضاعه من أجل «حماية الثّورة الإسلاميّة»، على حدّ قولهم. حتّى إنّ الشّرطة نفسها كانت تحسب لهم ألف حساب.

كنّا نرى حرس *«الباسداران»* في كلّ مكان، يسيرون دوماً في مجموعاتٍ من أربعة أفرادٍ، ويظهرون فجأةً من دون سابق إنذار. كان حرس *«الباسداران»* مثل التّمساح الذي يظلّ يتربّص بفريسته تحت سطح المياه، ويقترب منها شيئاً فشيئاً حتّى ينقضّ عليها، ويُطبق عليها فكّه المفترس. كانوا نساءً ورجالاً، دوريّات الرّجال كانت مسؤولةً عن اعتقال الرّجال، ودوريّات النّساء عن اعتقال النّساء. كان الرّجال منهم مُسلّحين، ولديهم لحى طويلة، ويرتدون بناطيل وقمصان عسكريّةً مريحةً؛ أمّا نساء *«الباسداران»*، فكنّ يرتدين شادور طويلاً أسودَ، والشّادور هو ثوبٌ طويلٌ يصل إلى الأرض، ويشبه الملاءة، تطوّح به المرأة بقوّة لتضعه على ظهرها ورأسها، فيغطّي جسمها بالكامل، من رأسها حتّى أخمَص قدميها، ثمّ تمسك به من الدّاخل أمام وجهها، أو تثبّته بدبّوس مشبك. النّساء المتشدّدات، أو اللّاتي لا يُردن إثارة الانتباه كُنّ يُمسكن بالشّادور أمام وجوههنّ بإحكامٍ شديدٍ بحيث لا يُرى من وجوههنّ سوى طرف الأنف، وعينٍ واحدةٍ، فتبدو الواحدة منهنّ كخيمةٍ سوداء متنقّلةٍ بقدمين عاريتين، وطرفَ أنف.

كنّا نرى حرس *«الباسداران»* جالسين في سيّارات دفْعٍ رباعيٍّ مكتوبٍ عليها بأحرفٍ صغيرة: *«فور ويل درايف»*، أو سيّارات دفْع رُباعيّ، ولكنّهم سرعان ما اشتهروا بين النّاس باسم *«فور ويلجارد دايوس»*، أو «المتشرّدون الأربعة المَكَرة»؛ لأنّ معظمهم كان يستمتع بالتّسلّط على النّاس، وإذلالهم، وتعذيبهم. كانوا قبل الثّورة مجرّد نكراتٍ، ومحطّ سخريةٍ واحتقارٍ من الآخرين، فأمثال هؤلاء هُم من كانوا يذهبون إلى المباريات الرّياضيّة فقط لإحداث شغبٍ بعدها، أو يتحيّنون أيّة فرصةٍ للشّجار والعراك مع أيّ أحدٍ، وأصبحوا الآن بعد الثّورة، يتلقّون أجراً من الدّولة مقابل ذلك. كنتُ قد سمعتُ هذا كلّه من الكبار، ولذلك كنت أكاد أموت خوفاً من *«الباسداران»*.

شعرتُ بقلقٍ شديدٍ على «زيبا»، وعندما عاد إخوتي من المدرسة، حكيتُ لهم ما حدث، وفي هذا المساء كان الجميع يتحدّث عن «زيبا» وليس عن أيّ شيءٍ آخر، وعرفنا فيما بعد أنّ الحَرس قاموا باحتجازها ليومين في نقطة الحراسة، وأنّهم

ضربوها، ولم يعطوها أيّ شيءٍ لتأكله، وفي اليوم الثالث قاموا بتعصيب عينيها، مثلما فعلوا وقت اعتقالها، ووضعوها في السّيّارة، ولفّوا بها المدينة من شرقها إلى غربها، ثمّ ألقوا بها من السّيّارة بكلّ بساطة. عثر عليها بضعة رجالٍ من أصحاب المحالّ، واعتنوا بها، واتّصلوا بأبويها. لم تكن «زيبا» تعرف أين احتجزوها، ولم تكن تريد أن تتحدّث عمّا تعرّضت له. كانت لا تزال تحت تأثير الصّدمة، وفارقت الابتسامة وجهها فترةً طويلةً من الزّمن، وسرعان ما تكرّرت حوادث الاختطاف كثيراً في المدن وأصبح الجميع، بما فيهم نحن الصّغار، يعرف شخصاً واحداً على الأقلّ قد تعرّض للاعتقال من قِبَل الحرس. عاش النّاس في رُعبٍ مستمرّ، وأصبح شغلهم الشّاغل هو عدم الوقوع في المحظورات قدر الإمكان.

ثمّ بدأت الحرب.

أعلن البلد المُجاور، العراق، الحربَ على إيران، وزحف الجيش العراقيّ إلى المناطق الحدوديّة. سمعت الكبار يقولون: إنّ الشّيوعيّين قد تضامنوا مع العراقيّين فقط لرغبتهم في الحصول على ما لدينا من بترول، وسمعتهم أيضاً يشتمون العرب، ويصفونهم بالهَمَج البَرابِرة الذين استغلّوا الموقف؛ لأنّهم لَطالما سعوا لاحتلال إيران؛ أمّا الشّعبان: العراقيّ، والإيرانيّ، فقد سادت بينهما كراهيةٌ تعود جذورها إلى قرونٍ مضت؛ كان كلٌّ منهما يستبيح الوسائل كافّةً لتدمير الطّرف الآخر، وسمعنا في المذياع أنّ العراقيّين يخطّطون لغزو إيران بشنّ عمليّةٍ عسكريّةٍ عليها تستمرّ أسبوعين، ولكنْ سُرعان ما تحوّلت هذه الهجمة العسكريّة إلى حربٍ، وأصبحت جزءاً لا يتجزّأ من حياتنا اليوميّة .

بعد أسبوعين من عيد ميلادي السّادس، وبعد أن فقدتُ ثاني أسناني اللّبنيّة، التحقتُ أخيراً بالصّفّ الأوّل الابتدائيّ في المدرسة، وقبل هذا الحدث الكبير بيومٍ، نادتني كلٌّ من أمّي، التي كنتُ أنا أكبر بناتها، وقريبتي، التي لم تُرزَق إلّا بذكورٍ، وقالت لي أمّي: «ستذهبين غداً إلى المدرسة. هل أنتِ متحمّسةٌ لذلك؟».

كنتُ أتطلّع بالفعل منذ أشهرٍ إلى الذّهاب إلى المدرسة، ولمْ أكن أفكّر في أيّ شيءٍ آخر. ابتسمتُ في خجلٍ حتّى بَدت فجوات أسناني المخلوعة، وأومأت برأسي، ثمّ سألتهما: «هل ستعطونني هديّة لأنّني سأذهب إلى المدرسة؟».

أجابتني أمّي قائلة: «بالطّبع! ستحصلين على هديّةٍ رائعة. أخيراً ستتمكّنين من ارتداء غطاءٍ للرّأس».

قلت لها في فزع: «طرحة؟ ولماذا أحتاج إلى غطاء؟ سأبدو كفتاةٍ قبيحةٍ من الرّيف. لا أحبّ أن أرتدي غطاء رأس!».

نظرت أمّي إلى قريبتها، كانتا تكرهان الحجاب أيضاً، وتلعنان هذا القانون ليلاً ونهاراً، وكان اللّعن يزداد في الصّيف، وعلى الرّغم من ذلك كان على أمّي وقريبتها أن تقنعاني بارتداء الحجاب.

خطرت لقريبتنا فكرة، فقالت لي: «صرتِ الآن فتاةً كبيرةً، والفتيات الكبيرات فقط يمكنهنّ ارتداء الحجاب. فكّري في الأمر. هل أخواتكِ محجّبات؟».

هززتُ رأسي بالنّفي.

فأكملت حديثها قائلة: «وهل سبق أنْ رأيتِ أحداً من أقاربكِ الشّباب يرتدي حجاباً؟».

ارتسمت على شفتيّ في هذه الأثناء تكشيرةٌ حزينةٌ، وعقدتُ ذراعي أمام صدري في غضب.

فأضافت قريبتنا بنبرةٍ ممتلئةٍ بالفخر: «ستكونين أوّل فتاةٍ ترتدي الحجاب في العائلة. لكِ أن تتخيّلي كيف سيغار منكِ الأولاد».

فجأةً، عادت البسمة إلى وجهي، وانفك ذراعيَ مرّةً أُخرى. اكتشفتُ أنّ عائلتي أنجبت قبلي ربّما مئة ولدٍ، أو هكذا شعرتُ آنذاك، ولم ينجب أحدٌ بناتٍ قبلي، ولذلك كان مولدي بمنزلة معجزةٍ لعائلةٍ لا تلد سوى الذّكور. كنتُ محطّ أنظار أفراد العائلة جميعهم، وصرتُ مميّزةً بثيابي الصّغيرة الجميلة، وأحذيتي الملساء البرّاقة، وشعري الطّويل، وأُعْجِبتُ كثيراً بفكرة غيرة الأولاد في العائلة منّي، حتّى إنّني وافقتُ على ارتداء الحجاب.

امتدحتني أمّي وقريبتها على قراري هذا، وطلبتا إليّ أنْ أجلس أمامهما. راحت كلٌّ منهما تجرّب تسريحةً جديدةً على شَعري الطّويل، وتحاول إخفاء خصلاته الكثيفة تحت الطّرحة، ولكنْ دون جدوى. ارتسمت على وجهيهما أمارات الجدّيّة، وهُما تجذبان وتعبثان في شَعري وفروة رأسي.

علّقت أمّي قائلةً: «هذا الطّقس اللّعين! لِماذا ينبغي أن يكون الجوُّ حارّاً ورطباً في هذا الوقت بالتّحديد؟ شعرها يتعقد في هذا الجوّ، وتصعب السّيطرة عليه».

ردّت عليها قريبتها قائلةً: «ومن سمعكِ! ولكن، ماذا سنفعل الآن في شعرها؟».

- لا أعرف ما الذي علينا فعله.

بدا أنّهما نسيتا لوهلةٍ أنّ لديّ أذنين، وبإمكاني سماعهما، وبدأتُ أشعر بالقلق والخوف من كلامهما.

فسألتهما قائلةً: «هل ستقصّان لي شعري؟ هل سأصبح صلعاء؟» لم يردّ عليّ أحد، فأكملتُ حديثي قائلةً: «لا أريد ذلك. لمْ أعد أريد أن أرتدي الحجاب، أو أنْ أذهب حتّى إلى المدرسة».

هدأت أمي من رَوْعي، وتركتني ألعب حتّى نسيتُ ما حدث بعد الظّهر كلّه، وفي المساء نادتني أمّي، وضَفرت لي شَعري كما تفعل كلّ ليلةٍ قبل أن أذهب إلى النّوم، ولكنّ الضّفيرة التي ضَفرتها لي أمّي ليلة ذهابي إلى المدرسة كانت الأجمل على الإطلاق؛ ربطتها من أسفل بشريطةٍ بيضاء كبياض الثّلج، لم يكن مسموحاً لي أنْ أرتديها إلّا في المناسبات الخاصّة، ثمّ وضعت المقصّ الكبير عند بداية الضفيرة وقصّتها.

في تلك اللّيلة المشؤومة لم أفقد ضفيرة شَعري فحسب، بلْ كان هناك شيءٌ قد اقتُلِع من أعماقي لا أعرف له اسماً، أعرف فقط أنّه ما زال محفوراً في ذاكرتي.

ذهبتُ إلى فراشي في تلك اللّيلة، وأنا في غاية الحزن، وبكيتُ حتّى امتلأت مخدّتي بدموعي الدّافئة. لمْ أكن أبكي حزناً، بل غضباً ممّا جرى لي.

هكذا بدأتْ أوّل أيّامي في المدرسة. كان عليّ الذّهاب إلى مدرسة فتياتٍ؛ لأنّه قد فُصِلَ بين البنات والبنين في مدارس مختلفةٍ بناءً على أوامر المُرشد الأعلى، ومع كلّ عامٍ دراسيٍّ كانت ثورة الغضب بداخلي تحتدُّ أكثر فأكثر، كأنّها ثمرة قزعٍ قبيحةٌ لا تريد أن تتوقّف عن النّمو.

شَعرتُ منذ اليوم الأوّل في المدرسة أنّنا لا نُعامَل باحترامٍ من قِبَل المعلّمات، وعلى الرّغم من ذلك، أو ربّما لهذا السّبب بالتّحديد، أردتُ أنْ أكون أفضل طالبةٍ في المدرسة. كنتُ أستمتع كثيراً بتعلُّم القراءة والكتابة، وبتعلُّم اللّغة العربيّة كلغةٍ أجنبيّةٍ، وكنتُ أستمتع في الوقت نفسه بأداء واجباتي المدرسيّة. كنتُ باختصار متعطّشةً للمعرفة.

لكنّني كنتُ أعيش في الوقت نفسه وسط أحداثٍ مُريعة؛ فعلى الرّغم من أنّ الكبار كانوا يحاولون بأقصى جهودهم أنْ يخفوا مثل هذه الأخبار عنّا نحن الصّغار، إلّا أنّنا كنّا نشعر أنّ هناك خطباً ما. لم يكن يمرُّ شهرٌ من دون أن تستحدث الحكومة قوانينَ

ولوائحَ جديدةً، من بينها القواعد الصّارمة التي فُرضت على الملابس، وما تبعه من حظْرٍ للموسيقا، ولم يكن هناك سوى قناةٍ واحدةٍ فقط في التّلفاز، كانوا يذيعون فيها تلاواتٍ قرآنيّةً، وأناشيدَ حربيّةً، وقصائدَ رثاءٍ بأصوات رجالٍ فقط؛ لأنّ أصوات النّساء حُظرت في تلك الفترة.

حظروا الأفلام الرّوائيّة والفيديوهات، وكذلك الألعاب، فلمْ يعُد مسموحاً لأيّ شخصٍ بلعب الشّطرنج، أو الكوتشينة، أو الطّاولة، وغيرها من ألعاب الزّهر، كذلك الرّقص، الذي وصلت عقوبته إلى حدّ السّجن. لمْ نعُد نرى العشّاق يتنزّهون على ضفاف نهر «زايندة رود»؛ لأنّه أصبح محظوراً على الرّجُل والمرأة السّير معاً إلّا في حال كانا متزوّجين، ووصل الأمر أن أصبح الحُبّ ممنوعاً هو أيضاً.

فقدت العديد من النّساء وظائفهنّ؛ لأنّ بعض تلك الوظائف أصبحت حِكراً على الرّجال بمقتضى القوانين الجديدة، كما لمْ يعُد مسموحاً للمرأة أن تتزيّن، أو تركب الدّرّاجة، أو حتّى أنْ تجري، وكذلك أصبحت السّباحة ممنوعةً في الأماكن العامّة مثلها مثل العديد من الرّياضات الأخرى. صار كلُّ شيءٍ ممنوعاً، وتعيّن على النّاس في المقابل قضاء أوقات فراغهم في الصّلاة، أو في حضور جلسات تنفيذ عقوبات الجَلْد، أو الإعدام العلنيّة. انتشر الحُزن والبؤس بين النّاس في كلّ مكانٍ، واعتكف الإيرانيّون في بيوتهم.

صار علينا الالتزام بالأوامر والمحظورات، ليس في حياتنا اليوميّة فقط، بلْ في المدرسة أيضاً، وإلّا تعرّضنا للضّرب والإهانة. كانت معلّمات التّربية الدّينيّة يخرضنَ على فرْض أقصى العقوبات علينا. دائماً ما كانت معلّمات التّربية الدّينيّة هنّ أسوأ معلّمات، سواء في الصّفّ الأوّل أم في الخامس الابتدائي؛ كنّ يعْدُدنَ أنفسهنّ حُماةً للدّولة الإيرانيّة الجديدة، وكنّ بطبيعة الحال يرتدين ما يُسمّى بـ«المغناءة» دوماً، وهي عبارة عن طرَحٍ كبيرةٍ ترتدي النّساءُ أسفلها غطاءَ رأسٍ إضافيّاً مصنوعاً من قماشٍ مطاطيٍّ يغطّي جبينهنّ حتّى بداية الأنف، حتّى لا تفلت خصلات شعرهنّ من تحته كما هو الحال مع الحجاب التّقليديّ، ولكنّ الصّغار أمثالنا كانوا يكرهون

«المغناءة»؛ لأنّها كانت مثيرةً للحكّة، وتُشعِرنا بالحرّ، ولذلك كنّا نفضّل ارتداء الحجاب التّقليديّ أكثر منها بكثير، ولكنّ معلّمة التّربية الدّينيّة كانت تشيد بمن ترتدي «المغناءة» من التّلميذات، وتحثّ الأُخريات على تقليدها، تارةً بالتّرغيب، وأُخرى بالتّرهيب.

كنتُ قد سئمتُ وتعبتُ من معلّمات الدّين المسنّات سليطات اللّسان؛ لأنّهن كنّ يجعلننا نَشي بمن يرتكبون المحظورات حتّى تتمكّنّ من إبلاغ *«الباسادران»* عنهم، بلْ كانت تستجوبنا عن آبائنا وأقاربنا أيضاً، فلمْ نكن نجد مفرّاً من الكذب. صرتُ أكذب كثيراً، واعتدتُ على الكذب، بلْ صرتُ ماهرةً فيه. كنّا نرى آباءنا وأقاربنا كلّهم تقريباً يرتكبون هذه الأفعال المحظورة، لأنّه لم يكن هناك شيءٌ غير محظور. كان أبي وأمّي يوصياني يوميّاً بألّا أتفوّه بشيءٍ ممّا يحدث في المنزل في المدرسة، ويُلقّناني الأكاذيب التي كان عليّ أنْ أسردها لمعلّمة الدّين الفضوليّة إنْ قامت باستجوابي. كانت المعلّمة كثيراً ما تسألنا كيف ومتى يصلّي آباؤنا، وتصف لنا مراراً وتكراراً وبالتّفصيل المملّ المصير الذي ينتظر تاركي الصّلاة. كانت تصفُ لنا جهنّم، وتخبرنا بأشياءَ مُرعبة.

كانت تصفها لنا بالتّفصيل، وباستمتاعٍ قائلةً: «ليست جهنّم مجرّد نارٍ، بلْ مخلوقٌ حيٌّ متعطّش للمزيد والمزيد من البشر، وكائنٌ يريد أن يفرّ بنفسه من نفسه؛ لأنّه أفظع مخلوقات الله». وتستكمل حديثها قائلةً: «إنّها فوهة نارٍ عميقةٌ ومظلمةٌ، يمكث فيها الكافرون والمنافقون إلى الأبد، حيث تلتهمهم النّيران، ويتعذّبون، ويتألّمون، ولا يموتون أبداً».

كنّا نجلس هناك في ذهولٍ تامٍّ، وننصِت إليها جيّداً.

- «لا مفرّ من جهنّم، ولا بالنّدم، أو بتزكية النّفس، وهؤلاء الملحدون، تاركو الصّلاة، سيذهبون إلى الجحيم بعد موتهم ويبقون فيه إلى الأبد. أخبروا آباءكم بذلك، فهناك من الكبار من نسي ذلك، وغرّته متع الحياة من لهوٍ ولعب».

حاولتُ آنذاك أنْ أستوعب معنى لفظ «إلى الأبد»، وأتخيَّل مدّته الزّمنيّة. كنتُ أعجز ليلاً عن النّوم، وأحلم في النّهاية بجهنّم عندما يغلبني النّعاس، لكنّني كنتُ دوماً أرى حُلماً واحداً لا يتغيّر؛ أرى أبي وأمّي يحاولان الإفلات من جهنّم التي تنقضُّ عليهما بمخالب من نارٍ لتلقي بهما في خندقٍ مظلمٍ وعميقٍ تتعالى منه أصواتُ صراخٍ كثيرةٌ، عندئذٍ أقوم فزعةً من النّوم، وأبكي فترةً طويلة. لمْ أكن أحكي لأبي وأمّي عن تلك الكوابيس، وكلّما راودتني نفسي أنْ أحكي لهما عن جهنّم، كانا يوصيانني بعدم تصديق أيّ شيءٍ تخبرنا به المعلّمات في المدرسة.

لمْ يكن أمامي إلّا الدّعاء لهما؛ كنتُ أتوسّل إلى الله قائلة: «إلهي، أتوسّل إليك أن تستثني أبي وأمّي من هذا العقاب. أرجوك يا الله، لا تلقِ بهما في جهنّم! هذا عقابٌ قاسٍ جدّاً. أتوسّل إليك! أعدك أنّني سأصلّي نيابةً عنهما. سأصلّي كلّ يومٍ خمس عشرة مرّة؛ خمساً من أجلي، وخمساً من أجل أمّي، وخمساً من أجل أبي».

كنتُ أعرف أنّه لا يسعني التّعدّي على كرم الله أكثر من ذلك، وأنْ أطلب إليه أن يُنجي أعمامي، وعمّاتي، وأخوالي، وخالاتي، وأجدادي أيضاً، لأنني كنت قد عجزتُ حتّى عن الالتزام بصلواتي الخمس.

كنتُ أرى حرس *«الباسداران»* في أحلامي أيضاً، كانوا هُم من يسجنونني في كوابيسي.

ومع مرور السّنوات اعتدتُ هذه الكوابيس، وقصص الرُّعب التي يحكونها لنا عن جهنّم، إلّا أنّني كنتُ أشعر في داخلي بثورة غضبٍ حين تسمح تلك المعلّمات لأنفسهنّ بلمس وجوه الفتيات بأصابعهن الشّبيهة بالمخالب لعدل حجابهنّ، وحشر الشُّعَيرات المعدودات التي تسلّلت من تحته أسفل الطّرحة مرّةً أخرى. قرّرت -وأنا في الصّفّ الثّالث الابتدائي- أنْ أرتدي «المقناعة» الضّيّقة التي كنتُ أكرهها، لشعوري بالاشمئزاز حين يلمِسنني.

في يومٍ من الأيّام، كنت في طريق عودتي من المدرسة إلى البيت، سمعتُ صوت امرأةٍ تبكي في المطبخ. لمْ أتجرّأ على الدُّخول والتنصُّت من وراء باب المطبخ الموارب على الحديث الدّائر بين أمّي وبين جارتنا السّيّدة «شريفة» التي كانت تسكن في شارعنا، فسمعتُ أمّي تسألها:

- وهل وصل إليكِ الخطاب بالبريد كأيّ خطابٍ عاديّ؟

ردّت عليها السّيّدة «شريفة» قائلةً: «نعم». كانت تتشنّج بكاءً، وتعجز عن الكلام.

ثمّ سمعتُ صوت خشخشة ورقٍ، ورأيت أمّي تضع ورقةً على مائدة المطبخ، وتمسك بيد السّيّدة «شريفة» التي كانت تجلس محنيّةً على كرسيّها حتى يكاد رأسها يلامس سطح المائدة، ثمّ قالت، وجسدها يرتعش: «ذنب ابني في رقبتهم. كان في ريعان شبابه، وكان على وشك الزّواج من خطيبته. لِمَ كان عليه أنْ يموت؟ لماذا؟».

لمْ تستطع أمّي الرّدّ عليها.

أكملت السّيّدة «شريفة» حديثها قائلةً: «هنّأوني في الخطاب على استشهاد ابني! أيهنّئونني أنا؟ هؤلاء الوحوش لا يملكون في قلوبهم ذرّة رحمة. لا يمكن أن يكون لديهم أبناء، وإلّا لما استطاعوا أنْ يكتبوا شيئاً كهذا»

بعدها بقليلٍ شاهدنا في التلفاز حفل افتتاح مدفن الشّهداء في طهران. كان المهندسون الذين صمّموا هذا المدفن قد ابتكروا تصميماً فريداً من نوعه من أجل الجنود الإيرانيّين الذين سقطوا في الحرب خاصّةً، حيث قاموا بتشييد نافورةٍ من عدّة طوابق تتدفّق منها مياهٌ حمراءُ اللّون كأنّها دماءُ الشّهداء. ثار أبي وأمّي وكذلك أقاربي غضباً حينما رأوا هذا المنظر، وأوصونا بالطّبع ألّا نخبر أيّ أحدٍ في المدرسة عمّا قالوه في المنزل بشأن «نافورة الماء»، أو عن رسالة التّعزية البشعة التي تلقّتها

السّيّدة
«شريفة».

رأيتُ أمّي في أحد الأيّام تحمل بعض المخدّات والأغطية، وتضعها في القبو، فسألتها: «ماما، لماذا تضعين هذه الأشياء في القبو؟».

ردّت عليّ قائلةً: «ربّما نحتاج إليها في القبو يوماً ما».

دُهشتُ من ردّها، وقلت: «أيعني هذا أنّنا سنبيت في القبو؟». تعجّبتُ كثيراً من الفكرة. لم أكن أحبّ النّزول إلى القبو قطّ؛ لأنّه كان مظلماً، وتتدلّى أعشاشُ العناكب من أركانه جميعها. لم يكن أيّ أحدٍ يطأ القبو من آنٍ إلى آخر سوى العمّال الحِرَفيّين، أو أبي في بعض الأحيان.

ردّت عليّ أمي قائلةً: «ربّما سنضطرّ إلى المبيت فيه يوماً ما، لذلك أريد الآن أنْ أنظّفه، وأرتّبه جيّداً، وأفرشه بأثاثٍ مريحٍ، ولقد وضعت فيه بعض السّجّاد بالفعل».

نزلتُ إلى القبو، كانت أمّي قد صعدت في الحال لإحضار أغراضٍ أخرى، فرأيتُ السّجّادَ الذي وضعَته في الأسفل، وكذلك جهازَ راديو، وإلى جواره الكثير من البطّاريّات، وصندوقاً به كشّافاتٌ صغيرةٌ، وشموعٌ، وكبريتٌ، ووجدتُ أمّي قد رصّت كمّاً كبيراً من زجاجات المياه، والطّعام المُعلّب في أحد الأركان. مكثتُ في الأسفل أتفقّد كلّ شيءٍ بدقّة.

وعادت أمّي إلى القبو مرّةً أُخرى، وهي تحمل المزيد من المُلاء، وبعض الأكياس الكبيرة.

فسألتها: «ماما؟ ولماذا سنحتاج إلى المبيت في القبو؟ المكان هنا غير مريح على الإطلاق».

أجابتني قائلة: «لماذا؟ إنّه يبدو لي مريحاً. صدّقيني، سنستمتع كثيراً بالمبيت هنا».

لكنّني لم أهدأ، وسألتها: «ولكن لِماذا قد نضطَرّ إلى المبيت في القبو؟».

- «ربّما سنضطَرّ إلى الاختباء في القبو. أتعرفين أنّ العراق قام بإلقاء قنابل على طهران؟ ولحُسن الحظّ لمْ تُصبْ جدّتكِ بأيّ مكروه، ولكنْ ربّما تصل الطّائرات العراقيّة إلينا في أصفهان. إذا حدث هذا، سيقومون بإطلاق صفّارات إنذارٍ صوتها عالٍ جدّاً، عندئذٍ سيعلم كلّ شخصٍ أنّ عليه الاختباء في قبو منزله».

سألتها: «وماذا سيفعل من ليس لديه قبو أسفل منزله؟». شلّتني الصّدمة حينها عن الحركة، وامتلأتْ عيناي بالدّموع: «ماذا لو حلّقت طائرةٌ عراقيّةٌ فوق رؤوسنا الآن، وأسقطت قنبلةً علينا؟».

عندما رأتني أمّي على هذه الحال وضعت الأغراض التي كانت في يدها جانباً، وهدّأت من رَوْعي قائلةً: «لا تَخَافي! أولئك الذين لا يملكون قبواً سيذهبون إلى من لديهم قبو، ويختبئون عندهم».

- «هل هذا يعني أنّه عند سقوط القنابل ستأتي باري إلينا؟». باري هي المربّية التي لطالما عملت لدينا، واعتنت بي منذ ولادتي، وكنتُ أعرف جيّداً أنّها ليست غنيّةً، ولا تملك بيتاً جميلاً بقبو.

أجابتني أمّي قائلة: «عندها ستجري باري مسرعةً لتختبئ في قبو أحد جيرانها».

لكنّني لمْ أنفكّ عن التّفكير في هذا الأمر، وبادرتُ أمّي بسؤالٍ آخر: «وماذا عن قططي؟ هل سنأخذها معنا إلى القبو؟ أنتِ لا تسمحين لها بدخول البيت أبداً. هل

ستمنعينها عند سقوط القنابل أيضاً؟».

- «كلّا، عند سقوط القنابل سأسمح للقطط بدخول البيت، وبالنّزول معنا إلى القبو».

- «ولكنْ كيف سأتمكّن من حمل هذه القطط كلّها إلى القبو في آنٍ واحد؟».

كان لديّ عددٌ هائلٌ من القطط، لم تكن تعيش في منزلي كالحيوانات الأليفة، بلْ كانت قططاً ضالّةً تعيش في الشّارع، وتعرف أنّني لن أؤذيها. كانت دوماً ما تأتي إليّ في الحديقة كلّما أرادت أن تستجمّ قليلاً.

أجابتني أمّي: «القطط ذكيّة، ستركض من تلقاء نفسها إلى القبو».

عندئذٍ اطمأنّ قلبي، ولمْ أعد أشعر بأيّ خوفٍ من الطّائرات وقنابلها.

بدأت منذ ذلك الحين أتنصّت على أحاديث الكبار أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وخاصّةً عندما أسمعهم يتهامسون. كنتُ أسمعهم يتحدّثون عن مقتل بعض أبناء أقاربنا وجيراننا في الحرب.

وذات ليلةٍ، كان أبي وأمّي يجلسان متربّعين على الأرض، يلعبان في ورق الشّدّة، وأنا مستلقية إلى جوارهما. كنتُ أسند رأسي إلى حِجْر أمّي، وأتظاهر بالنّوم، حين سمعت أبي يقول:

- لنْ تصدّقي ما سمعته اليوم في العيادة! قاموا بسَنّ قانونٍ جديدٍ يسمح للأطفال من سنّ اثني عشر عاماً بالمشاركة في الحرب من دون الحصول على موافقة أبويهم.

تساءلت أمي: «من سن اثني عشر عاماً؟إنهم مجرد أطفال، وليست لديهم أدنى

فكرة عن الحرب».

- «نعم! حاولوا في البداية الاستعانة بالحمير، فقاموا بإرسالها إلى ميدان القتال لتنفجر فيها الألغام، ولكن باقي الحمير حين رأت الألغام تنفجر في رفاقها رفضت أن تتحرّك من مكانها. كلنا نعلم كم هو صعب حث الحمير على الحركة عندما ترفض ذلك، وها هم الآن يستخدمون أبناءنا في تفجير الألغام، فهؤلاء يمكن إثارة حماسهم للإقدام على ذلك. اتصل بي مدير المدرسة في الأسبوع الماضي وطلب مقابلتي. كان مستاءً لعدم مشاركة أبنائنا في اجتماعات ميليشيات الباسيج».

ردّت عليه أمّي قائلة: «يا إلهي! ولكنّني ظننت أنّ حضور هذه الاجتماعات اختيارياً».

ضحك أبي ساخراً، وقال: «اختيارياً! أتمزحين؟ إنّ من لا يحضر هذه الاجتماعات يتعرّض للسّخرية، ويذهب إلى مدير المدرسة، ويُعاقب بالضّرب».

فسألته أمّي: «وماذا سنفعل لو أراد ابننا الأكبر الذّهاب إلى الحرب؟».

حرصتُ طوال تلك المدّة على إبقاء عينيّ مغلقتين. لم تكن تلك المرّة الأولى التي أسمع فيها عن «ميليشيات الباسيج»؛ لأنّ أخي كان يحكي لنا عمّا يحدث في مدرسته، أخبرنا أنّهم قاموا بعرض مجموعةٍ كبيرةٍ من الأسلحة في فناء المدرسة، وأجبروا التّلاميذ على المرور بجوارها مرّتين في اليوم، وأنّ أغلبهم انبهر بها، وأخبرنا أيضاً أنّ المعلّمين، والمدرّبين، وغيرهم كانوا يمدحون اجتماعات «الباسيج» المخصّصة للنّشء أمام التّلاميذ، ويخبرونهم بأنّ أعضاء هذه الميليشيات لديهم أوقات فراغ كثيرة، ويشاركون في معسكرات عطلات نهاية الأسبوع، ويُدرّبون على استعمال الأسلحة من دون مقابل، وهو ما جعل العديد من التّلاميذ يتحمّسون للمشاركة في الحرب، وكان من حقّ الجيش أن يأخذهم إلى الجبهة من دون إخطار آبائهم.

سمعت أمّي، وهي تلقي أوراق الشّدّة على الأرض، وتقول لأبي: «استحوذت الأسلحة على اهتمام أصدقائه، لم يعد أحدٌ منهم يتحدّث عن أيّ شيءٍ آخر».

- أجل، أعرف ذلك، ولذلك خطرت لي فكرة. أفكّر في أن أصحبه معي إلى المستشفى غداً بعد عودته من المدرسة ليرى جَرحى الحرب، ربّما يستوعب عندئذٍ المعنى الحقيقيّ وراء الحرب، ويعرف أنّها ليست لعبةً كما تصوّرها لهم «ميليشيات الباسيج». لدينا في المستشفى شخصٌ فجّرت القذيفة وجهه بالكامل.

علّقت أمّي قائلةً: «هذا فظيع! سيضطّرّ ابننا الآن إلى أن يرى شيئاً كهذا، لكنّني لا أرى أمامنا أيّ خيارٍ آخر. عليك أن تفعل هذا؛ اصحَبه غداً، لا داعي للانتظار».

انتابني الهلع ممّا سمعت، أشفقتُ على أخي الأكبر حتّى صدر عنّي صوت أنين، كما لو كنتُ أرى حُلماً سيّئاً، عندئذٍ انتبهت أمّي إلى أنّني ما زلت هنا، وقالت لأبي: «يا إلهي! ما زالت الصّغيرة نائمةً هنا. احملها إلى سريرها».

حملني أبي من الأرض، ووضعني في سريري. شعرتُ بسعادةٍ لا توصف. كان ذلك بالنّسبة إليّ أجمل إحساسٍ في العالم؛ لأنّني كنتُ أشعر بالأمان والاطمئنان وهو يضمُّني.

ظلّت الحرب جزءاً من واقعنا، ولم يعد الكبار يخفون شيئاً عنّا نحن الصّغار.

تعيّن على كلّ صبيّ عمره بين اثني عشر وسبعة عشر عاماً أن يشارك على مدار عدّة أسابيع في تدريبات «ميليشيات الباسيج» المجّانيّة بعد المدرسة، في تلك التّدريبات لم يتعلّم الأولاد القتال، بل كانوا يسمحون لهم بالتّصويب بأسلحةٍ حيّةٍ؛ ليشعلوا فيهم الحماس نحو الأسلحة عامّةً. كان الأولاد حين يحملون تلك الأسلحة في أيديهم، يشعرون بالسّلطة والرّجولة، وكانوا يستمتعون كثيراً بأوقات الفراغ

التي يقضونها معاً كمجموعةٍ واحدةٍ، وأصبح بينهم أسرار لا يعلم آباؤهم عنها شيئاً، وكان المدرّبون يوضّحون لهم أهمّيّة الحرب في الإسلام، ويعرضون لهم أفلاماً عن أعدائهم من مُسلمي العراق؛ أي: السّنّة، وكانوا يحفرون في أذهانهم فكرة الاستشهاد في الحرب بعَدّهِ شرفاً أنْ يستشهد المرء في سبيل نصرة مُسلمي إيران؛ أي: الشّيعة. ويخبرونهم بأنّ من يستشهد في الحرب يذهب إلى الجنّة مباشرةً، وأنّ تلك القلادة المعدنيّة التي يرتدونها حول أعناقهم هي مفتاح الجنّة، وكان المدرّبون يعطونهم في نهاية التّدريب عُصابة رأسٍ حمراء بلون الدّماء، ويخبرونهم بأنّ من يصمد في الحرب لثلاثة أشهر يمكنه العودة إلى دياره، ولا يجب أن يحزن لأنّه لم يستشهد؛ لأنّ الله قد اختاره لتلبية مهمّةٍ أخرى.

تعالى نُواح الأمّهات اللّاتي فقدنَ أبنائهنّ الصّغار في ميدان الحرب يوماً بعد يوم، كانت أصواتهنّ تسرق النّوم من جفوننا. كانت هؤلاء الأمّهات يتلقّين الخطاب ذاته الذي تتلقّاه أمّهاتُ الجنود البالغين الذين سقطوا في الحرب، في تلك الخطابات كانت الجمهوريّة الإسلاميّة توجّه شُكرها إلى الأسرة على ما قدّمته من تضحيةٍ، وتستهلّها دوماً بالعبارة الآتية: «نهنّئكم على استشهاد ابنكم!». وغالباً كان الأبوان يحصلان على قلادة ابنهما المعدنيّة مع هذا الخطاب، كان الجنود يرتدون تلك القلادة في الحرب إلى آخر لحظةٍ في أعمارهم، وكلّ منها كانت تحمل رقماً مختلفاً ليتسنّى التّعرّف إلى جُثث الجنود فيما بعد.

مات هؤلاء الصّغار؛ لأنّهم استُخدموا في تمشيط حقول الألغام، وتفجير الألغام المخبّأة في باطن الأرض بأجسامهم. كانوا يرتدون عصائبهم الحمراء، وينطلق المئات منهم يداً بيد، وبكلّ حماسٍ فوق هذه الحقول، ويدوسون فوق الألغام بأقدامهم حتّى تنفجر فيهم، وكان الجنود العراقيّون يمتنعون عن التّصويب على هؤلاء الصّغار، ويضطّرّون لمشاهدتهم، وهُم ينفجرون في الهواء، ويموتون أمام أعينهم، وما إنْ تنفجر الألغام، وتخور قوى الجنود العراقيّين من هَوْل المنظر يقوم الإيرانيّون بإرسال جنودهم القلائل المدرّبين تدريباً جيّداً إلى الجبهة.

كان معظم فتيان «الباسيج» يظنّون أنهم أشخاصٌ مميّزون، وكان مدرّبوهم يعرفون جيّداً كيف يثيرون حماستهم للحرب إلى درجة أنّهم كانوا يتحيّنون الفرصة للذّهاب إلى القتال. ذات يومٍ قرّر بعض أقاربنا أن ينطلقوا أيضاً بعصائبهم الحمراء إلى الميدان من أجل المشاركة في الحرب.

كان الكبار عندما يتحدّثون عن «غسيل المُخ»، أتخيّلها عمليّةً بشعةً ومؤلمةً للغاية، وأتعجّب من أنّ الأولاد كانوا يخضعون لها بمحض إرادتهم. سقط الكثير منهم في ميادين القتال، ومن نَجا منهم لقي مصيراً مُحزناً. كان الفتى منهم يبدو من حيث المظهر الخارجيّ كأنّه ذلك الشّخص الذي أحببناه في يومٍ من الأيّام، ولكنّ بداخله شخصٌ آخر، شخصٌ مختلفٌ عن ذلك الذي كنّا نعرفه في الماضي، كأنّ شخصاً غريباً قد انتحل شخصيّته، وعاش في جسده؛ قد فارقته الابتسامة، وانحفرت في وجدانه مشاهد لا يَسعه نسيانها، وهذا ما حدث لبعض أقاربي الأحبّاء. كنتُ أشعر أنّ هناك من حرمني منهم، أو كأنّنا فقدانهم في الحرب أيضاً.

لحُسن الحظّ لم يكن أخي الأوسط قد بلغ الثّانية عشرة بعد؛ أمّا أخي الأكبر، فقد كان شابّاً ذكيّاً، واستطاع أن يحمي نفسه من التأثّر بقصص زملائه الرّائعة، الذين كانوا يقضون فترات بعد الظُّهر في معسكرات «الباسيج» للتّدريب. لم يكن أخي يريد أن يحمل سلاحاً في يده على الإطلاق، ناهيك عن التّصويب به، ولم يكن يريد أن يرتدي عُصابةً حمراء بلون الدّماء على جبينه، ولا أنْ يذهب إلى معسكرات العطلات التي تنظّمها «ميليشيات الباسيج»، وبالطّبع لم يكن يريد أن يشارك في الحرب؛ أي إنّه باختصار لم يكن شخصاً طبيعيّاً من وجهة نظرهم، بل بالأحرى منطوياً ومفسداً للمتعة؛ كان حالماً.

Telegram:@mbooks90

عندما كنّا نسافر في عطلةٍ إلى بحر قزوين، لم يكن أخي يقفز في المياه مثل الأطفال الآخرين، بل كان يظلُّ واقفاً على الشّاطئ يتخيّل كيف تبدو البلاد التي تقع وراء الأفق، وماذا سيحدث لو أنّه سمكةٌ من أسماك هذا البحر، أو طائرٌ مهاجرٌ ترك كلّ شيءٍ وراءه، وفرّ هارباً إلى الضّفّة الأخرى من بحر قزوين، أو «إلى الغرب»، على حدّ

وصفه، ولم يعد مُجدِداً.

لم يكن أخي الأكبر يقتنع بكلام أبي حين يؤكّد له أنّ الغرب ليس على الضّفة الأخرى من بحر قزوين، وأنّه لن يجد هناك سوى الشّيوعيّين. أراد أن يرحل من هنا فحسب. أراد أن يذهب إلى الغرب.

كانت رغبته هي التي تدفعه إلى التّجوّل في أنحاء الأسواق السّرّيّة في أصفهان، حيث تُباع منتجات الغرب المحظورة. كان يشتري بطاقاتٍ بريديّةً عليها صور النّجوم والممثلين الغربيّين، وكان نجم أغاني البوب «مايكل جاكسون» هو نجمه المفضّل. لم يكن يتحمّل عذاب المدرسة إلّا لأنّه كان يعرف أنّه سيجد «مايكل جاكسون» بانتظاره حين يعود إلى البيت، كما استطاع أيضاً أن يؤثّر على العائلة بأكملها بولعه بـ«مايكل جاكسون»، وحُلمه بالذّهاب إلى الغرب.

تمنّى أخي أن يحصل في عيد ميلاده الرّابع عشر على شريط فيديو لـ«مايكل جاكسون». ذهب إلى أمّي في أحد الأيّام، وقال لها: «أكثر ما أتمنّاه في عيد ميلادي يا ماما هو الحصول على هذا الشّريط. أخبرني أعزُّ أصدقائي «سعيد» أنّ «مايكل جاكسون» يرقص كأنّه مخلوقٌ فضائيٌّ. أرجوكِ يا ماما، لا أريد شيئاً سوى هذا الشّريط فقط».

ردّت عليه أمّي قائلةً: «ولكنّك تعرف أنّ هذه الأشياء ممنوعة هنا، ووجود شريطٍ كهذا في البيت يمثّل خطراً كبيراً. في الأسبوع الماضي قام الحَرس بتفتيش منزل أحد أقاربنا، ولكنّهم لم يجدوا شيئاً لحُسن الحظّ. ماذا تظنّهم سيفعلون بنا لو عثروا لدينا على هذا الشّريط؟ سيقومون بحبس أبيك».

- لكن لدى سعيد الشّريط ذاته. لا تقلقي، لن يحدث شيء. أعرف مكاناً رائعاً يمكنني أن أخبّئه فيه، ولن يتمكّن الحرس من العثور عليه. أعدكِ بذلك. أرجوكِ يا ماما، أريده بشدّة.

فقالت له أمّي: «ولكنّ لديك أشياء كثيرة لـ«مايكل جاكسون»؛ «*تي شيرتات*»، وشرائط *كاسيت*، و*بوسترات*. ألا يكفيك هذا؟».

بادرها أخي بالقول: «ولكنّني أريد مشاهدة رقصته حتّى أتعلّمها، ولن أتمكّن من ذلك إلّا إذا شاهدتُ التّسجيل، كما أنّني اشتريتُ الأشياء الأخرى التي تتحدّثين عنها من مصروفي من السّوق السّوداء، ولم يسبق لكِ أن اشتريتِ لي أيّ شيءٍ متعلّق بمايكل جاكسون».

- حسناً، سأتحدّث إلى أبيك في هذه المسألة، ربّما يمكنه أن يطلب إلى السّيّد «غديمي» أن يأتي لنا بهذا الشّريط، ولكن إنْ لم نستطع الحصول عليه، سيكون عليك أن تفكّر في هديّةٍ أخرى.

صفّق أخي بيديه معبّراً عن فرحته، وقال لها: «أخيراً! شكراً يا ماما».

سُعدتُ أنا الأخرى بهذا الخبر. كان أخي الأكبر قد حكى لنا الكثير بالفعل عن «مايكل جاكسون». أتذكّر أنه عندما اشترى أوّل شريطٍ له أحضر الشّريط على الفور ليُسمعه للعائلة كلّها. استغرب أبي وأمّي صوته كثيراً، حتّى إنّ أبي سأل أخي الأكبر قائلاً: «هل هذا الذي يغنّي رجُلٌ بحقّ؟ صوته يشبه صوت النّساء».

فردّ عليه أخي قائلاً: «هذا هو المدهش في الأمر؛ صوته كصوت الملائكة، وموسيقاه رائعة».

كنتُ أتطلّع إلى مشاهدة «مايكل جاكسون» بصبرٍ نافدٍ، ورحتُ أتساءل في نفسي عمّا إذا كان سيظهر في الفيديو مرتدياً ملابس أم لا.

وعندما حان موعد عيد ميلاد أخي الأكبر، كانت من بين الهدايا المقدّمة له علبة

في مثل حجم شريط الفيديو بالضّبط، قرّر أخي أن يفتح هذه الهديّة أوّلاً، ولم يستطع أنْ يتمالك نفسه من الفرحة حين فتحها، ووجد فيها ما كان يتمنّاه بشدّة، صفّق له الجميع، وغنّينا له أغنية عيد الميلاد.

بعد انتهاء الحفل، ومغادرة الأصدقاء والأقارب جميعهم منزلنا، تمكّنا أخيراً من مشاهدة الشّريط. ما إنْ وضعه أخي في جهاز الفيديو حتّى بدأت الموسيقا بأصوات الطّبول الإيقاعيّة، وسرعان ما انضمّت إليها المزيد والمزيد من الآلات، ثمّ ظهر «مايكل جاكسون» ببشرته السّمراء، كان يرتدي بدلةً برّاقةً، تحتها قميص أبيض وربطة عنق حمراء، ولكنّ أكثر ما أعجبني في لباسه هو حذاؤه الأبيض اللّامع، وكان كلّما لمس شيئاً أضاء، سواء البلاطات على الأرض أم عواميد الإنارة، أو سلّة المهملات. كان يطاردهُ رجُلٌ شرّيرٌ عبر الشوارع ليهجم عليه، ولكنّ «مايكل جاكسون» اختفى فجأةً. لمْ يهرب من الرّجُل الشّرّير، بلْ راح يرقص ويغنّي. أحببت «مايكل جاكسون»، كان يرقص كرجُلٍ فضائيٍّ بالفعل. كان أخي مُحقّاً.

صرتُ منذ ذلك الحين أتابع أخي فيما يفعله كلّه. كان يتمرّن على الرّقصة كلّما سنحت له الفرصة، وأتقنها في غضون فترةٍ قصيرةٍ، كما اشترى لنفسه بنطال «جينز» ضيّقاً، على الرّغم من أنّه كان من الأشياء الممنوعة. كان حين يرتديه يشبه «مايكل جاكسون» جدّاً.

كان أخي يتحيّن كلّ مناسبةٍ ليرقص؛ إذا جاءنا ضيوف، أو في حفلات الزّفاف. كان حين يرقص يصحبنا معه، ولو لبضع لحظاتٍ إلى عالمٍ آخر، إلى الغرب الذي كان يتمنّى الذّهاب إليه. كان رقصه يشعل حماس العائلة بالكامل، وكنّا -نحن أشقاءه الثّلاثة الأصغر سنّاً- نتعلّمُ منه خطوات الرّقص التي يشاهدها في شرائط الفيديو الممنوعة. سرعان ما أصبح عرض «الإخوة زائري» الرّاقص فقرةً إلزاميّةً على من يأتون لزيارتنا جميعاً، هكذا أمضينا الكثير من الأوقات والأمسيات السّعيدة.

لكنّهم في المدرسة كانوا ينتشلون أخي من عالمه هذا بالإهانات البدنيّة

والمعنويّة ، كانت الحرب في انتظاره في الخارج، في يومٍ من الأيّام قرّر صديقه الوحيد أنْ ينضمّ إلى الجيش من تلقاء نفسه؛ ليضمن قبوله في الجامعة لاحقاً، ويحقّق حلمه بأنْ يصبح طبيباً. راح أخي يتوسّل إليه ألّا يفعل ذلك، ولكنّه ردّ عليه قائلاً:

- إلى متى ستظلّ تحلم يا زائري؟ آن الأوان لتفيق من غفلتك!

انخرط أخي في البكاء، وصار يبكي كثيراً، كان يبكي عندما يستيقظ من نومه، وعندما يذهب إلى الفِراش، لكنّ ما رأيناه يفعله بعد ذلك كان رهيباً، على الأقلّ من منظورنا كأطفال؛ قام أخي بتعليق بنطاله الضّيّق الممنوع، أو على نحوٍ أدقّ بنطال «مايكل جاكسون» في الدّولاب، ولمْ يعد يتحدّث عن الغرب. لقد تركنا «مايكل جاكسون» مصطحباً معه «روكي بالبوا»، و«بروس لي»، وفرقتي: «مودرن توكينغ» و«جنكيز خان»، والنّجم «آل بانو» وزوجه الممثّلة والمطربة «رومينا باور».

اتّسمت حياتنا اليوميّة بالقتامة، وأصبح أخي الأكبر أكثر بدانةً وهدوءً مع مرور الأيّام.

في نهاية المطاف، أُصدِرَ قانونٌ جديدٌ يقضي بمنع الشّبّان الصّغار فوق سنّ الخامسة عشر من السّفر منعاً باتّاً، وعُدّوا من ضمن جنود الاحتياط. كان أخي الأكبر آنذاك في الرابعة عشرة من عُمره، عندئذٍ تأكّد أبي وأمّي من أنّه لا مفرّ من الهرب، وأنّها الفرصة الوحيدة لإنقاذ أخي من الدّيكتاتوريّة والحرب. كانت هناك عائلات كثيرة قد هرّبت أبناءها بالفعل من إيران، إمّا إلى تركيا، وإمّا إلى أوروبّا، إلّا أنّ مثل هذه الرّحلات كانت تستغرق عدّة أيّامٍ، بلْ أسابيع أحياناً، وتحمل خطراً كبيراً على حياة الشّباب الذين كان عليهم أنْ يشقّوا طريقهم في الصّقيع عبر الجبال للوصول إلى تركيا، ثمّ عبور دولٍ أوروبيّةٍ مختلفةٍ بطرقٍ غير شرعيّةٍ، وبلا أوراق، كما تعيّن على آبائهم ائتمان أشخاصٍ غرباء عليهم، على الرّغم من أنّه نادراً ما كانوا يبدون محلّ ثقة. ما زلت أتذكّر كيف قام أقاربي بتهريب ابنيهما من إيران على هذا النّحو؛

أمضينا عدّة أيّامٍ في قلقٍ وخوفٍ يفوق احتمال البشر إلى أن اتّصل بنا المُهرّب في نهاية المطاف من تركيا.

رفعت أمّهما السّمّاعة بسرعةٍ، وهي مذعورةٌ، كما كانت تفعل عادةً في الآونة الأخيرة، لم تكن تترك الهاتف يرنّ أكثر من مرّةٍ واحدةٍ قطّ، وما إنْ رفعت السّمّاعة حتّى صرخت فيها قائلةً: «ألو؟». ورأينا وجهها يشحب أكثر فأكثر حتّى صار أبهت من الحائط الجيريّ الذي وراءها، ولكنّه عاد بعد لحظاتٍ قليلةٍ لينبض بالحيويّة مرّةً أخرى، ويتفتّح كزهرة الخوخ.

سمعناها تقول: «هل وصل السّكّر؟ حمداً لله. حمداً لله. أشكرك سيّدي. أشكرك».

كان «السّكّر» هو كلمة السّرّ التي اتّفقت عليها مسبقاً مع المهرّب، وتعني أنّ الشّباب قد اجتازوا رحلة الهروب، ونجوا من صقيع الجبال المُميت، وأسلحة حرس الحدود الفتّاكة.

لم يكن أبي وأمّي يريدان التعرُّض لهذا الموقف بالتّحديد؛ ولذلك كان هروبنا جميعاً معاً من البلاد أمراً مفروغاً منه بالنّسبة إليهما. جمعنا أبي ذات يومٍ، وأخبرنا بقراره هذا، وأوضح لنا نحن -الصّغارَ- أنّ حياتنا ستتغيّر تماماً.

- الأمر الوحيد المؤكّد هو أنّنا سنغادر إيران، سنسافر إلى تركيا. لا أحد يعرف ماذا سيحدث بعد ذلك. سنضطّرّ إلى التّضحية بكلّ شيء. لن نكون أغنياء بعد الآن، وقد نصبح فقراء. هل أنتم مستعدّون لذلك؟

صَمَت الجميع في البداية، وارتسمت علينا أمارات الجدّيّة، لكنْ شرعان ما كسر أخي الأكبر هذا الصّمت بصوته المُشرق، وبكلماته التي حاولت كلّ منها أن تستبق الأخرى: «نعم، أنا موافق، أريد ذلك، وسأحتمل كلّ شيء. أريد ذلك». أيّدناه -نحن أشقاءه الصّغار- في الرّأي، على الرّغم من أنّه لم يكن لديّ أدنى فكرة عمّا يعنيه ذلك

القرار. كنتُ أهلّل سعيدةً؛ فقط لأنّي رأيتُ أخي الأكبر يفعل ذلك، ولأنّه كان من الرّائع أنْ نراه يضحك من قلبه، وأنّ باله مُرتاح، ولأنّنا استطعنا أن نرى البريق يعود لعينيه السّوداوَين الجميلتين مرّةً أخرى.

كان على كلّ فردٍ من أفراد أسرتنا أنْ يدفع ثمناً باهظاً لهذا القرار. لمْ أضطرّ إلى الانتظار طويلاً حتّى أدفع الثّمن، فسرعان ما اكتشفت أنّني لن أستطيع اصطحاب القطط معي، وعلى الرّغم من أنّني لم أكن أعرف عددها بالتّحديد، فربّما كان عددها بين العشرين والثّلاثين قطّاً؛ إلّا أنّني كنتُ قد أعطيت لكلّ واحدةٍ منها اسماً، وأعرف شخصيّة كلّ قطّةٍ على حِدة. كنتُ أحبّهن جميعاً بسِحرهنّ، وطبيعتهنّ الخاصّة، وبمخاوفهنّ كلّها. لمْ يكن بإمكاني الابتعاد عن أيّة واحدةٍ منهنّ على الإطلاق.

كانوا يلقّبونني في شارعنا بـ«أمّ القطط»، وحصلت على هذا اللّقب في أعقاب حادثةٍ لم يتوقّف الجيران عن الحديث عنها.

سمعتُ ذات يومٍ قطّةً تموء في ذُعر، عرفتُ من صوتها على الفور أنّها قطّتي المفضّلة التي كان اسمها «جدّتي الصّغيرة»، وكنّا قد أعطيناها هذا الاسم لأنّها كانت أكبر القطط سنّاً، وعندما سمعتُ صوتها هرعتُ راكضةً خارج بوّابة منزلنا إلى الشّارع. رأيت ابن الجيران «عليّ» يمسك بـ«جدّتي الصّغيرة» من ذيلها ويطوّح بها في الهواء. لمْ أتمالك نفسي، فركضتُ نحوه غاضبةً، والشّرر يقدح من عيني، كان «عليّ» أسوأ الصّبيان في الحي، وأكثرهم مهابةً، حتّى إنّ أخي الأكبر، وأخي الأوسط كانا يفضّلان تحاشيه. كان بعضهم يقولون: إنّ «عليّاً» فقد عقله؛ لأنّ أباه يضربه بالحزام.

كان «عليّ» بالنّسبة إليّ شخصاً بشعاً. كنتُ أخاف منه كثيراً؛ لأنّني رأيتُ مدى وحشيّته وقسوته. كانت أمّه تنكبُّ طوال اليوم على غزل السّجاد بلا كللٍ، أو مَللٍ، ولمْ تكن تخرج من بيتها قطّ، وعندما كنتُ أتسلّق سور الحديقة، وأنظر خلسةً إلى حديقة منزلهم في بعض الأحيان، كنت أراها مرتديةً نقاباً أسود يغطّي جسدها

بالكامل من رأسها حتى أخمص قدميها.

كان أبي وأمي يحذّراني من هؤلاء النّاس، ويوصياني بالابتعاد عن هذه الأسرة، بما في ذلك الأب والأم؛ لأنّ الأسرة لم تكن طبيعيّةً على حدّ وصفهم، ولكنّني عندما سمعت «جدّتي الصّغيرة» تصرخ في ذلك اليوم ضربتُ بالتّحذيرات والمخاوف كلّها عرض الحائط. شعرتُ أنّ حياة «جدّتي الصُّغرى» معرَّضةٌ للخطر؛ لأنّني أعرف أنّ «عليّاً» كان قد قتل بعض الحيوانات من قبل. ركضتُ نحوه، وأنا أصرخ كأنّ حياتي هي المعرّضة للخطر. تملّك منّي الغضب لدرجة أنّني أحسستُ أنّ هناك مخالباً ستخرج من أصابعي.

لم يكن «عليّ» قد رآني بعد. كان يضحك ويمسك بالقطّة من ذيلها، ويهمُّ بأنْ يُطوّح بها عبر جذع الشّجرة، ولكنّه توقّف فجأةً، واخترقني بنظرته الشّرّيرة. شعرتُ وقتها أنّه رأى مخالبي، ولكنّه لم يُبالِ على الإطلاق.

خاطبني قائلاً: «ماذا بكِ أيّتها القزمة الصّغيرة؟ ربما تظنّين نفسك سوبرمان؟ لكنّكِ نسيتِ رداءكِ السّخيف». ثمّ بدأ يضحك كالمجنون.

ظللتُ واقفةً في مكاني، وهممتُ أنْ أقول له: «أيّها الشّرّير! دَعْ قطّتي من يدك، وإلّا عضضتُك!». ولكنّني شعرت بغصّةٍ في حلقي، وعجزتُ عن الكلام. كنتُ عندما أغضب أعجز عن التّفوّه ولو بكلمةٍ واحدة. شعرتُ بضيقٍ شديدٍ لعجزي عن الكلام، وانخرطتُ في نوبةٍ من البكاء والنّحيب، بدأت الدّموع تنهمر على خدّيّ كالشّلّالات، وأخذتُ أتفوّه بكلماتٍ غير مفهومة.

ابتسم «عليّ»، وقال: «انظري أيّتها الزّنّانة! إنّها الدّقائق الأخيرة في حياة هذا الحيوان النّتن».

ثمّ اتّسعت ابتسامته أكثر، ورفع القطّة من ذيلها إلى أعلى، وراح يطوّح بها في

الهواء مرّةً أخرى، أخذت القطّة تتمرجح يميناً ويساراً، وتموء بصوتٍ مؤثرٍ يلين منه الحجر، وامتزج عويلها الحزين بصوت صُراخي الغاضب.

في تلك اللحظة سمعنا صوتاً يقول: «أيّها اللّعين، هل وصلت بك الخِسّة إلى أن تعذّب من هُم أضعف منك؟». وإذْ برجُلٍ يصفع «عليّاً» على قفاه صفعةً قويّةً جعلته يترك القطّة من يده، فقفزت القطّة من مكانها، وهربت بعيداً.

تنفّست الصُعداء، ولمحتُ أخي الأوسط، من بين سيقان هذا الرّجُل، واقفاً في الخلف. أراد أنْ يبتسم لي، لكنّه كان لا يزال متأثّراً بالصّدمة. يبدو أنّه رأى ما حدث كلّه، فذهب ليستنجد بشخصٍ بالغٍ من الشّارع الرّئيس المجاور.

منذ ذلك اليوم، أصبحنا أنا وأخي «شرطة القطط»، كلّما سمع أحد جيراننا عن قطّةٍ تلد، أو تتعرَّض للخطر، كان يتّصل بنا على الفور، فتتوجّه «شرطة القطط» إلى مكان الحادث، وتتخذ الإجراءات اللّازمة. كنتُ أواجه الأولاد الكبار القاطنين في حيّنا بجرأةٍ، وأدافع عن حقوق القطط، فقط لأنّني كنتُ أعرف أنّ أخي إلى جانبي ويساندني.

ما إنْ نصل أنا وأخي إلى مكان الحادث حتّى نأخذ القطط المصابة، أو القطّة الأم، والقطط المولودة حديثاً، التي لم يكن هناك من يريدها، فنضعهم في صندوقٍ من الكرتون موفّرين لهم بيتاً جديداً في حديقتنا الواسعة؛ أمّا إذا اكتشفنا أنّ القطّة الأم قد هجرت قططها الصّغيرة، فكانت أمّي تشرّبهنّ الحليب بملعقةٍ صغيرة.

احتلّت قطّتنا العجوز، جدّة القطط كلّها، منزلةً خاصّةً في قلوب أفراد العائلة جميعهم، وأتذكّر أنّنا عندما ذهبنا بها إلى الطّبيب البيطريّ ذات مرّة، ارتبك الطّبيب بشِدّةٍ؛ لأنّه كان يتعامل عادةً مع الماشية وحيوانات المزارع.

لم يكن في إيران من يهتمّ بالحيوانات الصّغيرة إلّا عددٌ قليلٌ من النّاس؛ ذلك

بسبب حالة الفقر الشّديدة التي سادت البلاد، والأخبار المروّعة التي كانت تصل إلى النّاس يوميّاً من جبهة الحرب، ولكنّني كنتُ أهتمّ بتلك الحيوانات المسكينة، وأراقبها كالصّقر، وأحرص على ألّا يتسبّب لها أحدٌ من أبناء الجيران بأيّة أذيّةٍ، لذلك كان من المنطقيّ بالنّسبة إليّ أن أتساءل عمّن سيحمي تلك الحيوانات في المستقبل من عنف أولئك الأولاد؛ لأنّني كنتُ أعرف أنّهم سينتهزون فرصة رحيلي، ويعذّبون القطط كما يشاءون. انفطر قلبي حُزناً حين استوعبتُ أنّ «شرطة القطط» لن يكون لها وجودٌ ابتداءً من تلك اللّحظة.

أدركتُ بعد فترةٍ قصيرةٍ أنّ الرّحيل بلا عودةٍ كان يحمل معه ما هو أسوأ بكثير، ذلك أنّ سفرنا لم يكن سفراً عاديّاً خارج البلاد، بل رحلة هروبٍ ينبغي أن تتمّ في سرّيّةٍ تامّةٍ وبسرعة. تصادف أن يكون يومي الأخير في المدرسة في منتصف العام الدّراسيّ، كنتُ آنذاك في الصّفّ الخامس الابتدائي. لم يكن هناك أحدٌ غيري يعلم أنّه يومي الأخير، طلبتُ إلى صديقاتي أن تكتبن لي عباراتٍ لطيفةً على ورقةٍ صغيرةٍ، لكنّني لم أودّعهن، حتّى معلّمة الفصل لم تكن تعلم عن رحيلي شيئاً. وعلى الرّغم من أنّ جيراننا كانت لديهم فكرة بسيطة عن الأمر، إلّا أنّنا لم نودّع بعضنا صراحةً قطّ. قُمنا ببيع منزلنا الكبير مقابل مبلغٍ زهيدٍ، بكلّ ما فيه من فرشٍ، وسجّادٍ، وأثاثٍ، وحديقةٍ شتويّةٍ كبيرةٍ ممتلئةٍ بالنّباتات، وأسِرّةٍ، وطاولات، إضافةً إلى ألعابنا وكتبنا كلّها. كان سكّانه الجُدد أُسرةً ريفيّةً تتحدّث الفارسيّة بلهجةٍ لا يتحدّث بها إلّا الفلّاحون. استحوذوا على البيت بكلّ ما فيه أمام أعيننا، غادرنا نحن منزلنا إلى الأبد حاملين حقيبتي سفرٍ فقط.

قام أبي وأمّي بوضع الضّروريّات فقط داخل حقائب السّفر، من بينها تذكارات كثيرة، أهمّها ألبومات صورنا، وبضعة كتبٍ من مجموعتي المفضّلة. كانت هذه الحقائب ستخضع إلى تفتيشٍ صارمٍ قبل السّفر. قام الموظّف المختصّ بتفقّد كلّ شيءٍ بعنايةٍ، حتّى إنّه تفحّص مذكّراتنا وألبومات صورنا، ثمّ وضع ختمه على ما رآه إسلاميّاً وآمناً، من وجهة نظره. كانوا سيسمحون لنا فقط باصطحاب الأغراض التي تحمل ختماً إلى خارج البلاد. كانت القواعد تنطبق أيضاً على السّفر في عطلات، وهو

ما كنّا نتظاهر بالقيام به. كان إجراءً طويلاً، ومُكلفاً، ومهيناً، اضطررنا إلى التخلّي عن أشياء لها منزلة خاصّة في قلوبنا فقط لأنّ الموظّف المختصّ لم يضع عليها ختمه.

قضينا ليلتنا الأخيرة عند قريبتي المفضّلة، كانت أجواء الوداع تخيّم على المكان. لم يخلد أحدٌ إلى النّوم في تلك اللّيلة، بل ظلّ الكبار يتحدّثون طوال اللّيل، كأنّهم أدركوا فجأةً أنّه لا يزال لديهم الكثير للتحدُّث في شأنه. كان الأبناء الكبار لأقاربي إمّا في الحرب، وإمّا قد هربوا بالفعل. بقينا -نحن الصّغارَ- معاً في غرفةٍ كبيرةٍ ممتلئةٍ بالمراتب، وجلست جدّتي معنا كي تحكي لنا -بصوتها الدّافئ الذي لم أسمع صوتاً مثيلاً له في العالم كلّه- قصصاً خياليّةً كانت قد حكتها لنا من قبل آلاف المرّات، لكنّنا كنّا نسمعها في كلّ مرّةٍ بشغفٍ، كأنّنا نسمعها للمرّة الأولى. ما زلتُ أتذكّر رائحة جدّتي التي كانت تمتزج فيها روائح اللّافندر، والشّاي الأسود، والسُّكّر، والهال، والقرفة، والزّعفران. غصتُ في تلك الرّوائح، وتشبّثتُ فيها بيديّ الصّغيرتين.

في فجر اليوم التّالي انطلقنا إلى محطّة الحافلات في أصفهان، لنبدأ من هناك «عطلتنا» المزعومة، ورحلتنا إلى تركيا. كان الوداع الأخير مريراً وممتلئاً بالدّموع. قالت لي جدّتي بكلماتٍ شقّت طريقها بصعوبةٍ عبر دموعها: «لا تحزني. لن ترحلوا إلى الأبد. سنلتقي قريباً بلا شكّ، وكلّ شيءٍ سيعود كما كان». ثمّ أعطتني قبلةً، ونزلت من الحافلة.

شعرت في تلك اللّحظة أنّ قلبي قد توقّف لبعض الوقت، أو بالتّحديد لثلاثة أيّامٍ وليلتين، وهي المدّة التي استغرقتها رحلة الحافلة من أصفهان إلى إسطنبول.

الجزء الثاني

تركيا

إسطنبول
ISTANBUL

سمّي «بحر مَرمَرة»، أو «مَرمَرة دنيتسي»، كما يُطلِق عليه الأتراك هذا الاسم؛ لأنّ الجزيرة التي تتوسّطه تشتهر برخامها الأبيض الثمين. إذا ما نظرنا إليه من أعلى، فسيبدو «بحر مَرمَرة» على هيئة تمساحٍ له قرن، وهو المضيق الذي أطلق عليه اليونانيّون اسم «مضيق البوسفور»، وسنجد أنّ حركة مياه «مضيق البوسفور» متعاكسةٌ بين سطحه وبين أعماقه، وسنرى الخنازير البحريّة تسبح في هذا المكان جنباً إلى جنبٍ مع السُّفن بين البحر الأسود وبين بحر مَرمرة. ما من مضيقٍ آخر يقرِّب بين قارّتين مثلما يقرِّب «مضيق البوسفور» بين قارّتي: أوروبّا وآسيا، ومع ذلك تبدو المسافة بينهما في نظر اللّاجئين أكبر من أيّة مسافةٍ أُخرى تفصل بين قارّتين.

على مضيق البوسفور يطلُّ أيضاً حيّ «آق سراي»، وهو حيٌّ صغيرٌ من أحياء إسطنبول. في هذا المكان تتساقط يوميّاً شلّالاتٌ من الدّموع في مياه المضيق، فهو ليس بالحيّ الذي قد يرغب المرءُ بالعيش فيه، ناهيك عن أُسرةٍ لديها أطفال؛ ذلك لأنّ هذا الحيّ هو الوكر الرّئيس لتهريب وتجارة المخدّرات والدّعارة في إسطنبول. انتقلنا للسّكن في شقّة في هذا الحيّ. كنّا أسرةً مُعدمةً من اللّاجئين غير الشّرعيّين، وأنا كنت في العاشرة من عُمري. عشنا هناك مع لاجئين آخرين، ومع أتراك فقراء. لم يزعجني هذا الفقر، على الرّغم من أنّنا كنّا من الأثرياء في إيران، وكنّا نعيش في بيتٍ واسعٍ فيه حمّام سباحةٍ وحديقة، وكان لدينا خَدم، ولم نضطّرّ يوماً إلى التّخلّي، أو الاستغناء عن أيّ شيء.

كنتُ أعيش قبل ذلك في عالمٍ متميّزٍ، أو بالأحرى في فقاعةٍ آمنةٍ ومعزولة، لذلك كان انتقالنا للعيش هنا، في هذا العالم الجديد، بمنزلة مغامرةٍ بالنّسبة إلي، صار بإمكاني التّحرُّك بحُرّيّةٍ أكبر بكثيرٍ من تلك التي كانت مُتاحةً لي في إيران.

كانت الشّقّة التي عشنا فيها في هذا الحيّ جزءاً من هذا العالم الجديد أيضاً، تلك الشّقّة القذرة المُهدّمة التي كانت تعجّ بالفئران وغيرها من الحيوانات، والحشرات الرّخوة والمشعرة التي كانت تزحف على وجوهنا ليلاً.

وعلى الرّغم من تلك التّفاصيل إلّا أنّها لم تمنعنا -نحن الصّغار- من الانبهار بهذه الحياة الجديدة. كنّا نترقّب كلّ حدثٍ وراء الآخر بفضولٍ شديد. عادت الفرحة والابتسامة إلى أخي الأكبر مرّةً أُخرى، وكانت رؤيته على هذه الحال تُشعرني أنّه لا بدّ من أنّ حياتنا الجديدة حياةٌ مثاليّة. كنّا نذهب أحياناً من دون أبوينا لنتفقّد الميناء في الجوار، كنّا نشاهد هناك طيور النّورس التي لم نكن قد رأينا مثلها من قبل، والمياه العَكِرة المتّسخة التي تطفو القمامة فوق سطحها. كنّا نتعجّب كثيراً حين نرى كمّ الصّيّادين المصطفّين على ضفاف الشّاطئ للصّيد من هذه المياه، وعلى الرّغم من ذلك، كان كلّ شيءٍ رائعاً، ويدعو إلى البهجة، كنّا نشعر أنّنا في الجنّة. كنتُ أستمتع

هناك بصحبة إخوتي حين نذهب معاً لاستكشاف ذلك العالم الجديد، لم نكن نخضع لقانون التّعليم الإلزاميّ، وبالتّالي لم يُسمَح لنا بارتياد المدارس. في لمح البصر تحوّل عالمي الصّغير الذي عشتُ فيه في إيران بين بيتي، وحديقتي، وقططي، ومدرستي، وزياراتي لأقاربي، إلى عالمٍ أوسع بكثير.

تركت شَعري يطول مرّةً أخرى، ولم أعُد أرتدي الحجاب. كنتُ أتعجّب من أنّ النّساء في إسطنبول كنّ يختزن بحُرّيّةٍ كيف سيظهرنَ بين النّاس في الشّارع. بعضهنّ يرتدين «المغناءة»، هذا الحجاب الضّيّق الذي كنتُ أكرهه كثيراً، وبعضهنّ الآخر يخرجن إلى الشّارع بتنانير قصيرةٍ جدّاً، أو بتسريحات شَعرٍ مبتكرة. كنتُ أرى بعض النّساء التّركيّات يضعن كمّاً كبيراً من مساحيق التّجميل؛ أمّا أمّي، فقد قرّرت في الأشهر الأولى أنْ تستبدل طرحة خفيفة بحجابها، وقالت لي: «إنّه ليس من السّهل أنْ تخلع المرأة هذا الحجاب فجأةً، لأنّه ستشعر حينها أنّها عارية».

فهمتُ وجهة نظرها، ولكنّني كنتُ مسرورةً أنّني لن أضطّرّ إلى ارتدائه بعد الآن. كنتُ سعيدةً بوجودي في إسطنبول، وبأنّني لن أضطّرّ إلى العودة إلى إيران مُجدّداً. كانت فرحتي ببيتنا الجديد وبحرّيّتنا لا تضاهيها فرحة. تحمّستُ بشدّة حين تمكّنتُ من تعلُّم اللّغة التّركية في وقتٍ قصير. لم يكن قد مضى على قدومنا إلى إسطنبول سوى ستّة أشهر حين صرتُ أتحدّث اللّغة التّركية بطلاقة. ظنّ الكثير من النّاس أنّني طفلةٌ تركيّةٌ أصيلةٌ، حتّى صرتُ أتخيّل أنا الأُخرى أنّني فتاةٌ تركيّةٌ، وأنّ تركيا هي وطني الجديد، إلى أنْ جاء اليوم الذي تشاجر فيه أبي وأمّي، وسمعتُ أمّي تقول لأبي باكيةً: «ألا ترى كيف نعيش هنا؟ أصبحنا كالحيتان التي جنحت إلى الشّاطئ، وتقطّعت بها السُّبل. لمْ يعُد في إمكاننا المُضيّ قُدُماً، ولا العودة إلى حيث كنّا».

ردّ عليها أبي قائلاً: «ولكنّنا كنّا نعيش في إيران أيضاً كالحيتان الجانحة. أتظنّين أنّنا كنّا سننجو لو مكثنا هناك؟ جئنا إلى هنا بحثاً عن الحُرّيّة على الأقل، كحال الإيرانيّين جميعهم، الذين تقطّعت بهم السُّبل هنا. لا بدّ من وجود وسيلةٍ، وإلّا لما نجح غيرنا في ذلك».

ردّت أمّي: «أجل، أنت مُحقّ، لقد تقطّعت بنا السّبل هنا، وإنْ لم تأتنا مساعدة عمّا قريب ستكون نهايتنا بائسة. أتعي ذلك؟ أتعي أنّ تركيا لا تريدنا هنا، ولن يمنحونا فرصةً للاستقرار هنا أبداً؟ لا يسمحون لأبنائنا حتّى بالذّهاب إلى المدرسة. إنّهم يعاقبون أبناءنا». فقدت أمّي أعصابها، وانخرطت في البكاء مرّةً أخرى.

قال لها أبي: «وماذا عليّ أن أفعل؟ ما من بلدٍ يريد أن يستقبلنا. علينا الانتظار، وسيكون كلّ شيءٍ على ما يرام. دعينا نتحلّى بالصّبر فقط. صدّقيني. ما زلت مقتنعاً بأنّ ما فعلناه هو الصّواب. أرجوكِ، اصبري قليلاً بعد». وأضاف: «لا تفقدي الأمل، أرجوكِ!».

أدركتُ حينها أنّ تركيا لم تكن وطني الجديد. نظرتُ فجأةً إلى وجهي: أبي وأمّي، فلم أرهما سعيدَين. سألتُ نفسي: «إلامَ نتطلّع؟ وماذا عساي أنْ أتمنى؟».

كان الأمل يتلاشى رويداً رويداً، إلى أنْ تجلّى أمامنا ذات يومٍ على هيئة رجُلٍ إيرانيٍّ نحيفٍ ملامحه حزينة، يرتدي ملابس لا تتماشى مع حجمه. كان لديه شاربٌ داكنٌ وكثيفٌ، ومؤخّرة رأسه صلعاء. اسمه «السّيّد محمّدي»، كان يتحدّث بلا انقطاعٍ، ولم أكن أحبّه قطّ، ولكنّه في ذلك اليوم خاطب أبي قائلاً: «أنصت إليّ! وجدتُ الحلّ. أمامنا فرصة للنّجاة. هناك إمكانيّة للسّفر من تركيا إلى ألمانيا».

ردّ عليه أبي متسائلاً: «إلى ألمانيا؟». ثمّ تابع حديثه قائلاً: «لا تصدّق كلام النّاس، فحديثهم لا ينتهي. أين سمعت هذه القصّة؟ وكيف سنجرؤ أنا وأنت على الهروب إلى أوروبّا، والذّهاب في رحلةٍ خطرةٍ كهذه مع أبنائنا الصّغار؟ علينا أن نجد وسيلةً مشروعةً للسّفر إلى بلدٍ آخر، وينبغي أن تسمح لنا حكومة أيّ بلدٍ بالسّفر إليه أوّلاً، ثمّ سنحتاج بعدها إلى الحصول على تأشيرة. صدّقني، لم يعُد لديّ طاقة».

ولكنّ «الأمل ذو مؤخّرة الرّأس الصّلعاء». قاطع أبي قائلاً: «هذا بالضّبط ما سنفعله.

سنطلب تأشيرةً من ألمانيا الشّرقيّة. ليس علينا سوى الذّهاب إلى السّفارة، والتقدُّم بطلبٍ للحصول على التّأشيرة، وسيمنحوننا إيّاها على الفور. أنا لا أمزح، صدّقني. أعرف بضعة إيرانيّين قاموا بذلك، واتّصلوا بأحد أصدقاء معارفي من ألمانيا».

سأله أبي قائلاً: «وما الذي سيجعلهم يوافقون على منحنا تأشيرة؟ لا أحد يريدنا في بلاده».

ردّ عليه السّيّد محمّدي: «بلى، سيوافقون؛ لأنّهم يسعون إلى إزعاج ألمانيا الغربيّة فقط. هُم يعرفون جيّداً أنّه لا أحد يعيش في بلادهم باختياره، حتّى مواطنيهم يهربون إلى ألمانيا الغربيّة؛ أمّا ألمانيا الغربيّة فستضطرّ إلى استقبالنا؛ لأنّ هذا ما تعهّدت به، وبذلك ستكون ألمانيا الشّرقيّة قد أوقعت ألمانيا الغربيّة في فخّ. هل فهمت؟».

حينئذٍ بدأ أبي ينصت إلى «السّيّد محمّدي» باهتمام، وأخذ يسأله عن التّفاصيل: «وكيف سنتخطّى الجدار؟». ردّ عليه السّيّد محمّدي قائلاً: «لن نضطرّ إلى ذلك، سيقومون بترحيلنا تلقائيّاً إلى الجهة الأخرى». ظلّ السّيّد محمّدي يتحدّث ساعاتٍ طويلةً حتّى استطاع أن يقنع أبي، على الرّغم من أنّه كان خائفاً من اقتراف أيّ خطأ.

جلس أبي يفكّر لوهلةٍ، ثمّ أخبرنا أنّ هذه الخطّة لن تكون بأيّ حالٍ من الأحوال أسوأ من حياتنا آنذاك في تركيا.

- ليس لدينا شيءٌ كي نخسره. انظروا إلى الوضع الذي نعيش فيه الآن! نعيش في بلدٍ لا يريدنا، وسيجبرنا عاجلاً غير آجلٍ على العودة إلى إيران، وهذا أمرٌ لا يمكننا القيام به، لا يمكننا العودة إلى الوراء مُجدّداً. لمْ يعد أمامنا إلّا اتّجاهٌ واحدٌ؛ وهو المُضيّ قُدماً، ولذلك فإنّها فكرةٌ تستحقّ المحاولة.

فقال له «السّيّد محمّدي»: «هيّا! ارتدِ ملابس ثقيلة. علينا أنْ نقف أمام السّفارة

طوال اللّيل. ألديك ملابس داخليّة طويلة؟ ارتدِ ما لديك كلّه من ملابس، ودعنا نلتقي خلال ساعةٍ عند محطّة القطار الرّئيسة لنتوجّه إلى أنقرة». ثمّ ودّعنا «السّيّد محقدي» وانصرف.

في تلك اللّيلة من شهر كانون الأول/ديسمبر 1985 توجّه أبي و«السّيّد محقدي» إلى سفارة جمهوريّة ألمانيا الدّيمقراطيّة، وقفا طوال اللّيل في طابورٍ طويلٍ أمام السّفارة، وبالفعل حصلا في صباح اليوم التّالي على ما تقدّما للحصول عليه؛ تأشيرة إلى ألمانيا الشّرقيّة.

عاد أبي إلى المنزل مُرهقاً، ويكاد يتجمّد من البرد، أرانا تأشيرة ألمانيا الشّرقيّة على جوازات سَفرنا، فعادت السّعادة إلى شقّتنا مرّةً أخرى. بكى أبي وأمّي من الفرحة، وبدأ أخي الأكبر يهتف ويُهلّل. أخبرني أخي أنّ أهمّيّة تأشيرةٍ مثل هذه بالنّسبة إلينا بصفتنا لاجئين هي أكبر من تذكرة يانصيب رابحة، وقال لي: إنّ هذه الورقة الصّغيرة من شأنها أن تغيّر حياتنا إلى الأبد.

في اليوم ذاته، قام أبي بشراء تذاكر الطّيران، وتحدّد بذلك تاريخ مغادرتنا تركيا. أوضح لنا كم نحن محظوظون: «معظم اللّاجئين الذين يريدون الذّهاب إلى أوروبّا يضطرّون إلى القيام برحلةٍ خطرةٍ؛ أمّا نحن، فسنركب الطّائرة إلى وجهتنا النّهائيّة. سينجح الأمر، وسنترك وراءنا معاناتنا كلّها، ولن نعود إلى إيران مرّةً أخرى. سنبدأ مرحلةً جديدةً في أوروبّا. سأستأنف عملي بصفتي طبيباً في ألمانيا مرّةً أُخرى، وستكون حياتنا طبيعيّةً كما كانت في الماضي. أعدكم بذلك».

لم نعد حيتاناً جانحة، أصبح لحياتنا اليوميّة في إسطنبول طعمٌ ولونٌ في عيون أبي وأمّي. بدأنا نتعلّم بعض المفردات الألمانيّة لنستعدّ معنويّاً لفكرة الانتقال إلى ألمانيا. اشترى أبي قاموساً «ألماني-إنجليزي»، وبدأ على الفور في إعطائنا دروساً في المنزل. اهتمّ أبي كثيراً بتعليمنا أسماء أيّام الأسبوع باللّغة الألمانيّة، على الرّغم من أنّه لم يكن قد سمع في حياته كلمةً ألمانيّةً من قبل، ولذلك لم نتعلّم نطق أيّام

الأسبوع وغيرها من المفردات الألمانيّة بطريقةٍ صحيحةٍ، فكنّا ننطق على سبيل المثال كلمة *«زاميستاغ»* التي تعني في الألمانيّة: يوم السّبت *«زاميستاغ»*؛ أمّا كلمتا: *«زونتاغ»* و*«مونتاغ»* اللتين تعنيان: الأحد والاثنين، فكنّا نشدّ فيهما على حرفَي: النّون والغين أكثر من اللّازم، ونقول: *«ديانستاغ»* عوضاً عن *«دينستاغ»* التي تعني: يوم الثّلاثاء، و*«ميتفوتش»* عوضاً عن *«ميتفوغ»* التي تعني: يوم الأربعاء، وننطق اسم يوم الخميس *«دونهيرستاغ»* عوضاً عن *«دونرستاغ»*، والجمعة *«فيرايتاغ»* عوضاً عن *«فرايتاغ»*.

لم أكن سعيدةً بسفرنا إلى ألمانيا، ليس لخوفي من بلادٍ مجهولةٍ، ولا لأنّني سأضطرّ إلى تعلُّم لغةٍ أجنبيّةٍ، فأنا لم يكن لديّ أيّ مانعٍ من تعلُّم لغةٍ جديدة. لم أكن أرغب في السّفر؛ لأنّ هذا يعني أنّنا سنضطرّ إلى مغادرة البلد الذي كنّا نعيش فيه آنذاك. شعرتُ بالحزن؛ لأنّنا كنّا سنرحل عن إسطنبول. كانت تركيا قد احتلّت منزلةً خاصّةً في قلبي، وغَدتْها وطني الجديد. كان أبي قد عثر في هذه الأثناء على وظيفةٍ صغيرةٍ في إحدى المستشفيات، وانتقلنا قبل أسابيع قليلةٍ إلى السّكن في شقّةٍ جديدةٍ؛ ولذلك لم أرَ ضرورةً لمغادرة تركيا. كنتُ أرى أنّ الأوضاع جيّدةٌ على ما هي عليه. كانت هذه الشّقّة التي انتقلنا إليها قبل بضعة أسابيع تقع في عمارةٍ حديثةٍ في واحدةٍ من ضواحي إسطنبول الجميلة، وفي أحد أفضل الطّوابق على الإطلاق. كانت العمارة مزوّدةً بمصعدٍ حديثٍ، ومزلق قمامةٍ مبتكرٍ في بسطة السُّلّم؛ ولذلك كنتُ أقوم بإخراج القمامة عدّة مرّاتٍ في اليوم بكلّ حماس، فقط لأتمكّن من الذّهاب إلى هناك، وأتظاهر بأنّني أطعم هذا المزلق كيس قمامةٍ، فيشكرني هو بصوت ارتطام الكيس في قاعه. كنتُ كلّما سمعت هذا الصّوت أكاد أطير من الفرح، وأشعر براحةٍ نفسيّة. في تلك البناية كان هناك عائلات كثيرة لديها أطفال. إلى الآن ما زلت أتذكّر رائحة الشّقّة التي امتزجت فيها روائح الخشب، والغراء، وطلاء الجدران، والأثاث الحديث، ومنظر حيطان الحمّام المكسوّة بالسّيراميك الرّائع.

استيقظتُ من نومي ذات ليلةٍ، ونظرتُ من النّافذة. لم أصدّق ما رأيت؛ رأيتُ أنّ الحيّ قد اختفى بالكامل، ولم يكن بإمكاني حتّى رؤية الشّارع، أو البنايات من

حولنا. كان ارتفاع الضّباب قد انخفض كثيراً، إلّا أنّه لم يبلغ طابقنا ونوافذنا، فبدت عمارتنا كناطحةٍ تنبثق من بين السّحاب. كانت أنوار الشّوارع البرتقاليّة الدّافئة تضيء شحب الضّباب من أسفل، وبدت عمارتنا كبرجٍ شاهقٍ منعزلٍ ينبثق من بين الغيوم، كأنّه برجٌ يسكنه أحد عمالقة الأساطير. رأيتُ من فوقي السّماءَ السّوداء، وقد ازدانت بالنّجوم المتلألئة، ومن تحتي بحراً بلا قاعٍ من الغيوم البرتقاليّة. شعرتُ أنّه قد أصبح لديّ أجنحة، وأنّني قادرةٌ على الطّيران، أو أنّني أميرةٌ مُجنّحةٌ تسكن في بُرجٍ عالٍ.

أحببتُ هذه الشّقّة. لم أكن سعيدةً أنّنا سنضطّرّ إلى حزم كلّ شيءٍ من جديد، ولأنّ الصّغار، وأنا منهم، سيضطّرّون إلى التّخلّي عن ألعابهم مرّةً أخرى. لم تكن لدى أبي وأمّي أيّة فكرةٍ أين سينتهي بنا الحال، لذا لم يكن مسموحاً لنا إلّا أخذ الحاجيّات الضّروريّة فقط.

هذا بالضّبط ما حدث قبلها بعشرة أشهر؛ حُرمت من أشيائي ومتعلقاتي، واضطّررت إلى تركها في وطني الأوّل، إيران؛ لأنّها لم تكن تُعدّ من ضمن ضروريّات الحياة التي يمكن أخذها معنا في حقيبتين فقط، وها قد عُدنا إلى المشكلة نفسها من جديد، بدأنا نحزم الضّروريّات ذاتها في حقائب السّفر ذاتها، واضطّررنا إلى ترك كلّ شيءٍ آخر وراءنا.

في ليلة السّفر بلّلتُ فراشي، وشعرتُ بخجلٍ شديدٍ من نفسي، حتّى إنّني لم أجرؤ على إخبار أحدٍ بذلك. في تلك اللّيلة لم أكن أميرةً، ولا أميرة مُجنّحة بأيّ شكلٍ من الأشكال. لم أرَ شحباً، أو نجوماً، وبدا لي أنّ أنوار الفوانيس في الأسفل مُطفأة. كانت الأجواء في الخارج مظلمةً، وتعجُّ بأرواحٍ شرّيرةٍ متجمّدةٍ، وبمصّاصي دماءٍ، وشياطين، وأشباحٍ، وعمالقةٍ غاضبين، وغيرها من الكائنات التي يعرفها الأطفال جيّداً، ولكنْ لم يخترع أحدٌ اسماً لها بعْد.

ذهبتُ إلى حمّامنا الجديد، واغتسلتُ، وحاولتُ جاهدةً ألّا أُصدِر أيّ صوتٍ حتّى

لا يكتشف أحدٌ حادثتي المشؤومة. ارتديتُ الملابس الدّاخليّة النّظيفة التي كانت أمّي قد أعدّتها لي لأرتديها في صباح اليوم التّالي، وقمتُ بغسل ملابسي المتّسخة والملاءة، لكنّني لم أكن أعرف كيفيّة تنظيف المَرتبة، فبدأتُ أدعك البقعة بالإسفنجة في يأسٍ شديدٍ، وظللتُ أدعكها فترةً طويلةً حتّى امتلأت عيناي ببحرٍ من الدّموع حَجب الرّؤية أمامي تماماً. فكّرتُ أنّني لو قلبتُ المرتبة على النّاحية الأخرى، فلن يكتشف أحدٌ ما حدث، وفعلتُ ذلك، ونسيتُ تماماً أنّها بلا ملاءةٍ، وأنّ غياراتي ستكون مبتلّةً في الصّباح. ظللتُ أبكي طويلاً حتّى استيقظت أختي الصّغيرة، واقتربت منّي لتنام في حضني.

طالما تمنّيتُ أنْ أحظى بأختٍ، تحقّقت أمنيتي بالفعل في عيد ميلادي الرّابع، في القسم الأوّل من حياتي الذي أمضيته في إيران. ظلّت أختي فترةً طويلةً مجرّد «طفلةٍ صغيرةٍ» في نظرنا جميعاً. لم أنتبه إلى وجودها طوال سنوات حياتها الأولى؛ لأنّها كانت تمضي وقتها كلّه مع أمّي، ثمّ جذبت انتباهي شيئاً فشيئاً مع مرور الوقت. يومها كانت أختي في السّابعة من عمرها؛ أي: فتاة كبيرة. صار لي أختٌ بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى. أحببناها جميعاً، وكانت تدهشني في كثيرٍ من الأحيان بإرادتها القويّة والمذهلة. كنتُ أشعر أحياناً أنّها ترى أشياء لا يسعنا نحن رؤيتها، وأنّ هذه الأشياء هي التي جعلتها أكثر شجاعةً وحكمةً منّا جميعاً.

تمكّنت أخيراً من الخلود إلى النّوم عندما جاءت أختي الصّغيرة الشّجاعة كي تنام بجواري، واستغرقتُ في النّوم، لكنّني لم أحلم بأيّ شيءٍ في تلك اللّيلة. في صباح اليوم التّالي اكتشفت أمّي حادثتي الصّغيرة بالطّبع، لكنّها لم تقل شيئاً، ومن جهتي تظاهرتُ أنّني لم ألحظ ما حدث. تخلّصت أمّي من الملاءة المتّسخة، ومن قميص النّوم، والغيارات. لم نكن سنأخذ هذه الأشياء معنا في الأحوال جميعها، فحقائب السّفر كانت قد حُزِمَت بالفعل، ووُضعت في الرّدهة استعداداً للسّفر.

الجزء الثالث

ألمانيا

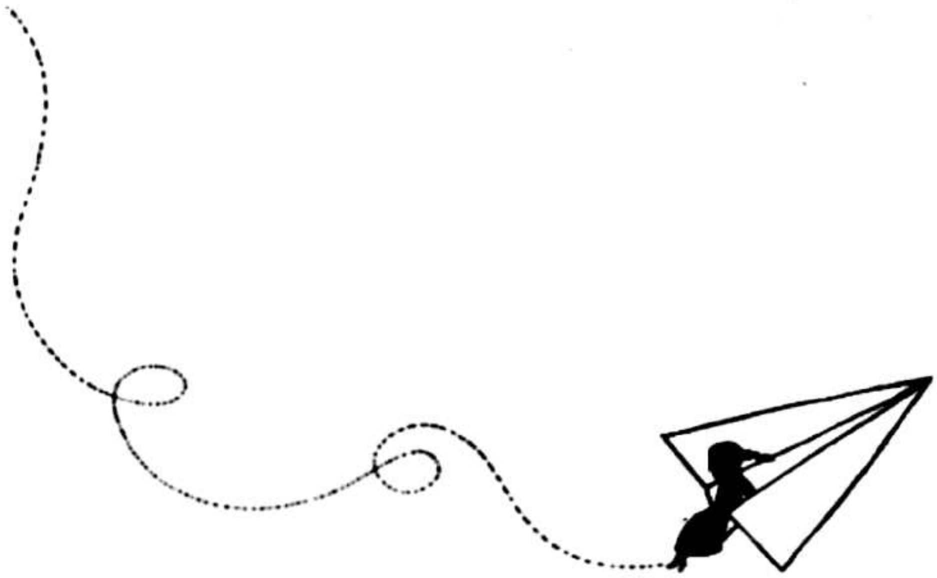

برلين الشرقية OSTBERLIN

نهرٌ له خمسة منابع، يسمّونه «نهر شبريه»؛ أي: «الرّشّاش». يتدفّق هذا النّهر في مجرى طويلٍ من شرق برلين إلى غربها، ويصبُّ هناك في «نهر هافل». شهد الجزءُ الأخير من مجراه الكثير من الأحداث؛ هناك مات الكثيرون ممّن اختاروا الحُرّيّة؛ لأنّ العبور من شرق البلاد إلى غربها ظلّ محظوراً على النّاس فترةً طويلةً، على عكس «نهر شبريه».

- «يا أبنائي، سنصل قريباً إلى مكانٍ يوجد فيه جدارٌ منيعٌ يشبه جدران السّجن، لا يستطيع أحدٌ أن يتخطّاه». هذا ما قاله لنا أبي، ونحن في المطار: «قاموا ببنائه من أجل منع سكّان شرق البلاد من العبور إلى الجزء الغربي. إذا حاول أحدٌ تخطّي هذا الجدار، فإنّهم يطلقون عليه النّيران على الفور من دون رحمةٍ، أو شفقة».

سألت أبي: «ولِمَ علينا الذّهاب إلى هناك؟».

ردّ عليّ قائلاً: «لأنّنا حصلنا على تصريحٍ لعبور هذا الجدار، والذّهاب إلى ألمانيا الغربيّة، وهذا ما يحلم به ملايين النّاس».

علّقت أمّي قائلة: «وما الذي يجعلك واثقاً إلى هذا الحدّ من أنّهم سيسمحون لنا بعبوره، وأنّ الألمان الشّرقيّين لن يطلقوا النّار علينا عند هذا الجدار؟».

- لأنّهم أعطونا تأشيرة خروجٍ مدّتها ثلاثون ساعة. صدّقيني، سننجح في ذلك كما نجح غيرنا من الإيرانيّين الذين سبقونا واستغلّوا هذه الفرصة. قامت ألمانيا الشّرقية بطردهم جميعاً في غضون ثلاثين ساعة. سينجح الأمر. ليس لديّ شكٌّ في ذلك.

شعرتُ بالخوف من هذا الجدار المُرعب الذي يموت النّاس عنده رمياً بالرّصاص، الذي جلسنا في مطار إسطنبول منتظرين الطّائرة التي ستأخذنا إليه.

في صباح ذلك اليوم مررنا لزيارة صديقةٍ لنا في إسطنبول قبل أنْ نتوجّه إلى المطار، كانت سيّدةً إيرانيّةً، وابنتها كانت صديقتي، ودّعتنا بنهرٍ من الدّموع، وأعطتنا علبة شوكولاتة من ألمانيا. كان علينا -نحن الصّغار- أن نتحلّى بالصّبر حتّى يسمح لنا الكبار بتذوّق الشّوكولاتة، فأبي وأمّي لم يكونا في مزاجٍ يسمح بالنّقاشات. في الظّهيرة وصلنا إلى مطار إسطنبول.

في وقتٍ متأخّرٍ من ذلك المساء انتهت فترة الانتظار، وصعدنا أخيراً متنَ الطّائرة المُتّجهة إلى برلين الشّرقيّة. عندما جلس كلٌّ منّا في مقعده في الطّائرة تأكّدتُ من أنّه ما من أملٍ في العودة مرّةً أُخرى. اضطررتُ في تلك اللّحظة إلى أن أودّع تركيا. رأيتُ وجهَي أبي وأمّي مشرقين من الفرحة والارتياح، نادراً ما كنتُ أراهما على هذه الحال، ثمّ سمعتُ أمّي تقول لنا: «حسناً يا أبنائي، أظنّنا جميعاً نستحقّ مكافأةً

صغيرة».

تذكّرتُ علبة الشّوكولاتة في تلك اللّحظة، وشعرتُ بالسّعادة لمجرّد التّفكير فيها. فتحت أمّي علبة الشّوكولاتة عبْر جذب الشّريط الذّهبيّ القصير، وأزالت ورقة السّلوفان التي كان صوت إزالتها يثير في النّفس شعوراً بفرحةٍ وشيكة. ناولت أخي الأكبر أوّل قطعة شوكولاتة؛ لأنّه كان أكثرنا حبّاً للمغامرات، لذلك كنّا نجعله يتذوّق المأكولات المجهولة أوّلاً حتّى يخبرنا إن كان مذاقها لذيذاً أم لا. هذا ما اعتدناه منذ أن عشنا في الغربة، فكثيراً ما كانت أطعمة تبدو شهيّة، ثمّ نكتشف فيما بعد أنّ مذاقها بشعٌ، أو على العكس. كما توقّعنا، كانت هناك مفاجأة كبرى في انتظارنا داخل حبّات الشّوكولاتة، نظرنا جميعاً إلى أخي الأكبر، وهو يقضم بحذرٍ شديدٍ طبقة الشّوكولاتة الدّاكنة الملساء، وفي تلك اللّحظة انقسمت حبّة الشّوكولاتة وخرج منها سائلٌ سرعان ما تساقط على قميص أخي. لم أطق الانتظار أكثر من ذلك، فوضعتُ قطعتي في فميَ دفعةً واحدةً، وسمعتُ أخي في الوقت ذاته يحذّرنا قائلاً: «يا إلهي! انتبهوا، يوجد سائلٌ داخل الشّوكولاتة. عليكم تناولها دفعةً واحدة!».

ما إن بدأتُ في مضغ قطعة الشّوكولاتة حتّى انتابني شعورٌ بشعٌ، ومثيرٌ للاشمئزاز إلى أقصى حدّ. كانت الشّوكولاتة محشوّةً بكحولٍ عالي التّركيز لا شأن له بفم فتاةٍ في الحادية عشرة من عمرها، لم يسبق لها أن تذوّقت أيّة مشروباتٍ كحوليّةٍ، ولم تكن لديها أدنى فكرة أنّ اختراع الشّوكولاتة بالكحول موجودٌ بالفعل على أرض الواقع.

استعدّت الطّائرة للتّحليق، ودارت محرّكاتها النّفّاثة بسرعةٍ متزايدةٍ، ولكنّني لم أكن أفكّر سوى في السّائل المقزّز الذي امتلأ به فمي، وراح يتمرجح بين خدّيّ المنتفخين هنا وهناك. أصابني الإحباط، وسألت نفسي: كيف عساي أن أتصرّف، وإلى متى سأحتمل طعم هذا السّائل من دون أن أبتلعه. كانت رائحته الحادّة النّفّاذة قد انتشرت في فمي، وتوغّلت إلى رأسي، وأذني، وأنفي، وتجاويف عينيّ، ثمّ نزولاً إلى حلقي ومعدتي. أردتُ فقط أنْ أبصق هذا السّائل الذي صار أشبه بالعصيدة من فمي،

ولحُسن الحظّ أمسك أخي -أو بالأحرى ملاكي الحارس- كيسَ القيء أمامي لأبصق فيه ما بداخل فمي.

على الرّغم من أنّني لم أضطرّ إلى بلع هذا السّائل إلّا أنّني انخرطتُ في نوبة بكاءٍ طويلةٍ، ولم أستطع أن أتوقّف، كأنّ قطعة الشوكولاتة هي القطرة التي أفاضت الكأس. أصِبتُ بصداعٍ رهيبٍ، وأثار طعام الطّائرة غثياني. أردتُ فقط أن أخلد إلى النّوم وأنسى ما حدث، ووددتُ لو كان بإمكاني التّبخُّر في الهواء كي أتمكّن من العودة إلى دياري مرّةً أخرى. سألت نفسي: «ولكنْ أين هي دياري؟». أدركتُ وقتها أنّه ليس لديّ ديار أبداً. شعرتُ بيأسٍ وحزنٍ، وتمنّيتُ عندها لو كنتُ شخصاً آخر في مكانٍ آخر. كانت تلك الرّحلة بشعةً بكلّ ما فيها. أمضيتُ في تلك الطّائرة ليلةً أشبه بكابوسٍ طويلٍ لا ينتهي. استيقظتُ في النّهاية على صوتٍ يقول: «بسرعة! انظري من النّافذة! انظري إلى هذا القمر العملاق!».

كنتُ قد بكيتُ طويلاً حتّى غصتُ في نومٍ عميقٍ، ثمّ استيقظتُ على أصوات أبي، وأمّي، وركّاب الطّائرة، وهُم يبدون إعجابهم وانبهارهم بالقمر، لكنّني لم أكن أريد أن أشاهد القمر أبداً بعد الآن؛ فبسببه تركتُ دياري، وأصبحتُ بلا ديار.

ما إنْ هبطت الطّائرة في برلين الشّرقيّة حتّى توالت الأحداث بسرعةٍ شديدةٍ، وبدأ الكبار يستعجلوننا. كان أبي يعرف من أين يمكننا دخول برلين الغربيّة، على الرّغم من وجود الجدار، وكيف يمكننا الوصول إلى ذلك المكان. كانت هناك خطّة غريبة يتناقلها الإيرانيّون في إسطنبول فيما بينهم، وقد وصلت هذه الخطّة إلى أبي، ودوّنها بالتّفصيل؛ ولذلك كان يعرف في أيّ شارعٍ علينا أن ننعطف بعد الخروج من المطار، والأتوبيس الذي علينا ركوبه، وعدد محطّاته بالتّحديد. كان يحاول مراراً أن يستفسر من المارّة عن الشّوارع، فينطق لهم أسماءها بصوتٍ مرتفع. كان لأسمائها رنّة مُضحكة للغاية؛ لأنّها تشبه الكلمات التي كنّا نبتدعها ونحن صغار، عندما نتظاهر أنّنا نتحدّث بلغةٍ مشفّرة، لكنّ معالم الجدّيّة والقلق على وجوه أبي، وأمّي، وإخوتي لم تكن تتناسب مع ذلك. استطعنا في آخر الأمر أن نصل إلى إحدى محطّات قطار

الأنفاق المسمّى الـ(إس بان) السّفليّة. كانت المحطّة كئيبةً، ورائحتها لا تختلف عن الرّائحة الغريبة التي تفوح عادةً من محطّات قطار الأنفاق، التي كانت عبارة عن مزيجٍ من روائح المعدن، والبول، والحجارة الباردة، وأجهزة التّكييف. كانت أعيننا قد بدأت بالكاد تعتاد نور لمبات «النيون» في الأنفاق، حين رأينا أمامنا مجموعةً من جنود ألمانيا الشّرقيّة المدجّجين بالسّلاح. أشاروا إلينا في الاتّجاه الذي كان علينا السّير فيه، وعلى القطار الذي يجب علينا أن نركبه، الذي كان قد وصل إلى المحطّة بالفعل. فتحت عربات القطار المُضاءة من الدّاخل بلمبات «نيون» أيضاً أبوابها استعداداً لاستقبال الرّكّاب. شعرتُ بالخوف من قطار الـ(إس بان)؛ لأنّه بدا لي كوحشٍ أشبه بالثّعبان، وأبوابه كأنّها أفكاكٌ مفترسة. كانت إشارات الجنود واضحةً لا لبْس فيها. كانوا يطردوننا من بلادهم. من الواضح أنّه كانت لديهم أوامر بترحيل اللّاجئين أمثالنا إلى ألمانيا الغربيّة. كانوا يصوّبون أسلحتهم الآليّة الفتّاكة نحونا، فرحلنا من تلقاء أنفسنا. لم يتفوّه أيٌ منّا بكلمة، على الرّغم من أنّ الجميع كان يمضي متثاقلاً في طريقه، مُحمّلاً بالقلق والخوف. كنّا نسير وسط مجموعةٍ كبيرةٍ وقاتمةٍ من اللّاجئين، والأطفال، والحقائب، وعلى الرّغم من ذلك لم يُسمَع لنا أيّ صوت، كأنّ هذا الوحش الثّعبانيّ الذي يتربّص بنا قد استعاض عن حاسّة البصر بحاسّة سمعٍ فائقة. حتّى الرُّضّع والأطفال لم يبكوا، كأنّ الخوف قد عرف طريقه إلى نفوسنا جميعاً. لَحظتُ التّوتّر على أبي وأمّي، وحين رأيتُ معالم الرّعب على وجه أبي، أدركت أنّه ينبغي لي أن أتبعه خطوةً بخطوةٍ، واستشعرتُ خطورة الموقف. فجأةً، استوعبتُ أنّ البلاد التي نتّجه إليها لا ترى سوى أنّنا نجلب معنا المتاعب، وأنّه ليس مُرحّباً بنا في أيّ مكان.

٦ برلين الغربية
WESTBERLIN

«نهر هافل» هو نهرٌ صغيرٌ جميلٌ يحيط بمنطقة «هافل لاند» كعقدٍ من حبّات اللّؤلؤ. تتمثّل حبّات اللّؤلؤ في البحيرات الصّغيرة الكثيرة التي تصطفُّ جنباً إلى جنبٍ على مجراه. يقع منبع «نهر هافل» في ألمانيا الشّرقية، أو جمهوريّة ألمانيا الدّيمقراطيّة سابقاً؛ ولهذا يمكننا القول أيضاً: إنّه ربّما يكون «نهر هافل» قد رافقنيَ أنا وأسرتي في رحلتنا من الشّرق إلى الغرب، وحمانا في هدوءٍ من دون أن نشعر، أو نلحظ.

عنما وصلنا إلى برلين الغربيّة شعر أبي وأمّي بالارتياح، كأنّ همّاً ثقيلاً قد انزاح عن صدرهما، ودُهِشتُ كثيراً حين أخبرانا أنّنا قد اجتزنا الجدار؛ لأنّني لم أرَ أيّ جدار.

تساءلت أمّي قائلةً: «وماذا سنفعل الآن؟ إلى أين سنذهب؟». أجابها أبي بنبرةٍ متفائلةٍ وواثقةٍ: «لا تقلقي. عندي فكرة. سأسأل أحد المارّة عن سيّارات الأجرة. لا شكّ في أنّهم يسمّونها «تاكسي» في ألمانيا أيضاً، وبعدها سأقول لسائق سيّارة الأجرة كلمة «أوتيل(1)»، فهي أيضاً معروفة في أنحاء العالم، ولنرَ بعدها». وأضاف قائلاً: «انظري، لا أرى أيّ أحدٍ في هذا المكان. أين ذهب الجميع؟».

لكنّ أمّي لم تسمع سائر حديثه؛ لأنّها كانت قد التفتت إلينا لتتأكّد من أنّ ستراتنا مغلقة حتّى لا نتجمّد من البرد.

أمسك بذراعها، وقال: «انظري بنفسك. لا يوجد أحدٌ هنا. لقد رحل الجميع!».

عندها رفعت أمّي نظرها نحو الأعلى، وعجزت عن الرّدّ لوهلةٍ، ثمّ قالت: «هل نحن في برلين الغربيّة؟».

عندئذٍ بدأنا -نحن الصّغار- نتلفّت حولنا أيضاً، ولكنّنا لم نر أيّ أحدٍ على الإطلاق، ولو شخصاً واحداً في الأنحاء. كانت الشّوارع خاليةً تماماً من البشر، كالشّوارع المتربة التي نراها في أفلام *«الويسترن»* حين يأتي الأشرار إلى المدينة، فيختبئ الجميع، ولكنْ مع فارقٍ واحدٍ، وهو أنّنا لم نكن أشراراً، والشّوارع هنا لم تكن متربةً، بل كانت مغطّاةً بطبقةٍ من الثّلج. كان البرد قارساً. ظننتُ حينها أنّ كارثةً طبيعيّةً قد لحقت بالمدينة، وأنّ النّاس يختبئون في بيوتهم من شدّة البرد. لم يتردّد أبي طويلاً، وطلب إلينا أن نجري حتّى لا نتجمّد من البرد. لم نكن نرتدي قبّعات، أو قفّازات، أو سترات شتويّةً ثقيلةً؛ لأنّنا لم نكن نتوقّع أن يكون الجوّ بهذه البرودة. بدأنا نجري، وجرّ أبي من ورائه حقائب سفرنا. الحقيبتان اللّتان كانتا تحتويان على آخر ما يتعلّق بنا، وعلى الرّوائح التي أخذناها معنا من إيران. حرصنا جميعاً على البقاء بجوار أبي وأمّي، بما في ذلك إخوتي الكبار. شعرتُ أنّ قدميّ قد تجمّدتا كقطعة جليد. لم أعد أشعر بأصابع قدمي، وأحسستُ بعد فترةٍ قصيرةٍ أنّهما أصبحتا مثل لعبة بندول تتمرجح نحو الأعلى والأسفل عندما أجري، ولحُسن الحظّ عثرنا على سيّارة أجرةٍ بعد فترةٍ قصيرةٍ، وكان يجلس بداخلها إنسانٌ حقيقيٌّ من لحمٍ ودم. تنفّسنا الصّعداء، وقام أبي بنطق أولى كلماته الألمانيّة بمزيجٍ من الشّجاعة والحياء: «*أوتيل*؟».

فهمه سائق التّاكسي على الفور، وأومأ برأسه. بدا لنا شارد الذّهن، ومنتبهاً في الوقت ذاته. لا بدّ من أنّه كان يسمع أخباراً مهمّةً في المذياع. ربّما كانوا يحذّرون من مخاطر الطّرق في ظلّ أجواء برلين الشّتويّة، أو ربّما يذيعون النّتائج المرتقبة لإحدى مباريات كُرة القدم. بعدها سمعناه يقول شيئاً في جهاز اللّاسلكي الخاصّ به، ثمّ خرج من السّيّارة، وهَمّ بحمل حقائبنا ووضعها في حقيبة السّيّارة. أسرعنا جميعاً داخل السّيّارة الدّافئة بأجسامنا المرتجفة، وكما جرت العادة ركب أخي الأكبر

بدايةً وأجلس أختي الصّغيرة على حِجْره، وكان من المفترض أنْ أجلس أنا على حِجْر أخي الأوسط، ولكنّني حين هممتُ بالجلوس على حِجْره سمعنا، ولأوّل مرّةٍ في حياتنا، كلمة «لا» باللغة الألمانيّة. دُهشتُ كثيراً عندما سمعتُ هذه الكلمة؛ لأنّها كانت المرّة الأولى التي يُحدّثنا فيها أحدٌ باللّغة الألمانيّة، عندها تبيّنت قيمة الدّروس الخصوصيّة، فهمنا على الفور ما يقصده السّائق بكلمة «لا».

سرعان ما استوعبتُ عواقب هذه الكلمة علينا، فقد رفض السّائق أنْ يقلنا جميعاً إلى الفندق في سيّارةٍ واحدةٍ، مُدّعياً أنّ عددنا كبيرٌ على سيّارته المرسيدس الواسعة ذات اللّون السّكّريّ، وأوقف لنا بالفعل سيّارة أجرةٍ ثانية، لكنّنا لم نكن نريد أن نفترق عن بعضنا لأيّ سبب، لاسيّما في هذا العالم المجهول الذي لا نعرف فيه كلمةً ألمانيّةً واحدةً، كما أنّنا لم نكن نعلم أين عسانا نلتقي مُجدّداً لو حدث أنْ ضللنا الطّريق، فقبل دقائق قليلة لم نكن واثقين إنْ كنّا قد وصلنا إلى برلين الغربيّة أم لا.

قرّرتُ أن أصبّ غضبي على هذا السّائق الأحمق، نظرتُ إليه، فرأيته يرتدي خاتماً ضخماً في إصبعه الصّغير. ذكّرني هذا الخاتم بسائقي المفضّل في أصفهان، كان اسمه «حسن»، ولمْ أحظَ بفرصة معرفة لقب عائلته قطّ. كنتُ أركب مع «حسن» كلّ صباحٍ في سيّارته المتهالكة من طراز *«البيكان»*، تلك السّيّارات الإيرانيّة التي صُنِعَت من أجل أبناء الطّبقة المتوسطة من عامّة الشّعب. كان يقلني من المدرسة وإليها، جنباً إلى جنبٍ مع ثمانية أطفالٍ آخرين، وكان كلٌّ منّا يجلس على حِجْر الآخر بالتّبادل. في أحد الأيّام اضطررنا إلى اصطحاب بضعة أطفالٍ آخرين معنا حين تعطّلت سيّارة أحد زملاء «حسن». أتذكّر عددنا في ذلك اليوم، وأشعر بالفخر لتحقيق ذلك الرّقم القياسيّ، فقد اتّسعت تلك السّيّارة التّقليديّة يومها لأربعة عشر طفلاً، وخرجنا منها جميعاً سالمين باستثناء بعض الكدمات الخفيفة.

لذلك لم أستوعب كيف أنّه لا يحقّ لي الجلوس في هذا التّاكسي الفخم على حِجْر أخي؟ ازداد سخطي على السّائق، وفَخرتُ بأبي عندما لَحظتُ أنّه بدأ يتحدّثُ بصوتٍ مرتفع. ظلّت موشّحات الشّتائم الفارسيّة تتطاير في الأنحاء كخنافسَ عدائيّةٍ نتنةٍ،

وتقابلها من الجهة الأخرى الشّتائم الألمانيّة كفراشاتٍ ترفرف بأجنحتها الرّقيقة إلى أنْ اتفقوا في النّهاية على حلٍّ مُرضٍ للأطراف جميعها. ركبنا جميعاً إحدى سيّارات التّاكسي الواسعة التي تشبه الشّاحنات الصّغيرة إلى الفندق.

عندما دخلنا إلى غرفتنا في الفندق وجدنا كيساً صغيراً من «حلوى *الجوميبِرشن*» على كلّ وسادةٍ من الوسائد، كأنّ تلك الدّببة الصّغيرة المصنوعة من «الجيلي» ترحّب بنا في الغرفة، وكانوا يضعون لنا أكياساً جديدةً في كلّ يوم. وعلى الرّغم من أنّنا لم نقضِ في الفندق سوى يومين كاملين وليلتين فقط، إلّا أنّني شعرتُ أنّهما أسبوعان. كان الجوُّ في الخارج لا يزال بارداً جدّاً، والشّوارع خالية من البشر، فاستغلّينا هذه الفترة في الاسترخاء والتّعافي من ضغوط الأشهر العشرة الماضية، كنّا على وشك أن نستنفد آخر ما تبقّى لنا من ميزانيّة «رحلة الهروب»، فكنّا نتغذّى جيّداً، ونستحمّ كثيراً، ونشاهد التّلفاز من الصّباح إلى المساء. وكان أكثر ما أحبّ مشاهدته في التّلفاز هو إعلانَ البطّاريّات الذي عُرِض مئات المرّات على مدى اليومين اللّذَين قضيناهما في الفندق، إنّه ذلك الإعلان الذي يظهر في بدايته جيشٌ كاملٌ من الأرانب التي تطرق على الطّبول، ولكنّهم سرعان ما يتوقّفون عن الطّرق واحداً بعد الآخر، عدا أرنبٍ واحدٍ يظلّ يطرقُ على طبلته بحيويّةٍ ونشاطٍ حتّى نهاية الإعلان؛ وذلك لأنّه الوحيد الذي يعمل بالبطّاريّة المُعلَن عنها. كانت هذه الأرانب توقظ الأمل بداخلي. بدأت أحبّ وطني الجديد.

أعدّ لنا أبي وأمّي مفاجأة استطاعت أن تنسينا نحن الأربعة ما تعرّضنا له كلّه من ضغوطٍ منذ بداية رحلتنا، بل إنّ تلك المفاجأة كانت في نظرنا أشبه بكيسٍ ممتلئٍ بـ«حلوى *الجوميبِرشن*» ولا ينتهي أبداً. في هذا اليوم ذهب أبي وأمّي معنا نحن الأربعة إلى كشك الهاتف، واتّصلا برقمٍ ما، وأعطيا كلّاً منّا السّمّاعة حسب الدّور، وظلّ أبي يضع العُملات المعدنيّة داخل حصّالة الهاتف، وهو يقول لنا: «تحدّثوا بقدر ما تشاؤون».

عندما حان دوري لآخذ السّمّاعة سمعت على الطّرف الآخر صوت شخصٍ ظننتُ

أنّني لن ألتقيه مرّةً أخرى في حياتي، سمعتُ صوت قريبي الذي هُرِّبَ هو وأخوه عبر الحدود، وأشارت إليهما أمّهما في تلك المكالمة الهاتفيّة على أنّهما «سُكّر». بعد أن انتهيتُ من الحديث معه أخذ أخوه السّمّاعة.

سألاني عن أحوالي، وعمّا أفعله، فحكيت لهما عن «حلوى *الجوميبِرشِن*»، وإعلان البطّاريّات، وأخبرتهما أنّنا انتقلنا إلى ألمانيا. لم أصدّق نفسي حين انتهيت من المكالمة، شعرتُ أنّني أحلم. كنتُ أحبّهما كثيراً، وحُرِمتُ من سماع صوتيهما منذ فترةٍ طويلةٍ جدّاً.

بعد ساعةٍ من عودتنا إلى الفندق فوجئنا بصوت طرقٍ على الباب، وإذْ بنا نرى قريبينا الشّابّين أمامنا، صرخنا جميعاً من الفرحة، وانهال عليهما أبي وأمّي بالقبلات، كأنّهما قد بُعِثا بعد الموت، هذا ما كنتُ أشعر به بالضّبط. ظننتُ أنّني أرى أمامي أشباحاً. بَدت عليهما معالم الوسامة والحيويّة. ارتميتُ في أحضانهما وقبّل كلٌّ منّا الآخر. حملني أكبرهما وأجلسني على حِجره، وأبدى إعجابه بشَعري الجميل.

شعرتُ كما لو كنتُ ملكةً، وبثُّ واثقةً من أنّه لا يمكن أن يصيبنا أيّ أذى في وجود قريبينا الشّجاعين، بنضجهما، وخفّة دمهما، ووسامتهما.

ثمّ قال لنا أكبرهما: «وصلتم تحديداً في فترة أعياد الميلاد، ومع ذلك تتعجّبون من أنّكم لا ترون أحداً في الشّارع؟ الكلّ هنا يحتفل بالعيد في بيته. إنّه أهمُّ عيدٍ في ألمانيا، وتستمرّ عطلته على مدى ثلاثة أيّام، ولكنْ دعونا نذهب الآن».

حزمنا أمتعتنا، وقام أبي بدفع حساب الفندق في مكتب الاستقبال. ذهبنا مع قريبينا إلى مسكن إيواء اللّاجئين الذي يقيمان فيه. اعتزمنا البقاء هناك فترة العيد، وعطلة نهاية الأسبوع، إلى حين حلول موعد استئناف المصالح الحكوميّة عملها في يوم الاثنين اللّاحق، وذلك حتى يتمكّن أبي من إبلاغ السّلطات المعنيّة بوصولنا.

بعد الظُّهر سِزنا جميعاً إلى محطّة الحافلات. كنتُ أشعر بالجوع والإرهاق. نزلنا من الحافلة، وركبنا قطار الـ(إس بان). بعد خروجنا من المحطّة كان علينا السّير داخل الغابة لمدّة خمس عشرة دقيقة، حتّى نصل إلى مقرّ مَسكن الإيواء. كانت تلك أوّل مرّةٍ أرى فيها غابةً كهذه في حياتي؛ إذ إنّ الغابات في إيران كانت تُعدُّ أماكن خَطِرة، فهي خاليةٌ من الطُّرُق الممهّدة، وممتلئةٌ بالعصابات.

سِزنا في تلك الغابة في طريقٍ واسعةٍ جدّاً، تحفّه الأشجار العالية من الجانبين. كانت الثّلوج تغطّي كلّ شيءٍ، والأغصان تتلألأ، لم يكن بإمكان المرء أن يرى شيئاً من بين الأشجار بسبب الضّباب. شعرتُ أنّني في قصّةٍ خياليّةٍ أسير فيها في غابةٍ مسحورةٍ، وتأكّدتُ من ذلك حين دخلنا مقرّ المَسكن، ورأينا أمامنا الحفل الكبير الذي كان مقاماً فيه. كانت الموائد والجدران مزيّنةً على نحوٍ مُبهجٍ، واللّمبات الملوّنة معلّقة في كلّ مكانٍ، والنّاس يضحكون ويتجاذبون أطراف الحديث على أنغام الموسيقا، والموائد عامرةٌ بالنّقانق والبطاطس المهروسة، وبكمٍّ هائلٍ من «كيك الشتولّن». كانت تلك هي المرّة الأولى التي أتناول فيها «كيك الشتولّن» في حياتي، حتّى إنّني لم أتناول سواه في هذا اليوم، أكلت منه كمّيّةً هائلةً، ورحت أفكّر طويلاً وأتساءل، حتّى كدتُ أفقد عقلي: لماذا لم يخترع الإيرانيّون «كيك الشتولّن»؟

قام الألمان بعد ذلك بتوزيع هدايا كريسماس صغيرةٍ على أبناء اللّاجئين. كانت هناك سيّدة تنادي على كلّ طفلٍ باسمه ليصعد خشبة المسرح، ويتسلّم جائزته. سألت نفسي: «من هُم هؤلاء الألمان؟ ولماذا يفعلون ذلك؟ ولماذا يمضون عطلتهم في مسكن إيواءٍ للاجئين؟ أليس لديهم عائلات؟». تابعنا أنا وإخوتي ما يحدث بانبهارٍ على الرّغم من علمنا بأنّنا لن نحصل على هدايا؛ لأنّنا كنّا قد وصلنا في الحال إلى مقرّ المَسكن، إلّا أنّ ما حدث بعدها كنتُ لأظنّه مستحيلاً، أو ضرباً من الخيال؛ نزلت السّيّدة عن خشبة المسرح بعد انتهائها من توزيع الهدايا، وبدأ النّاس يرتدون ستراتهم، ويتوجّهون نحو أبواب الخروج، ولكنّ السّيّدة سرعان ما صعدت خشبة المسرح مُجدّداً، ومعها أربع هدايا أُخرى، ثمّ قالت شيئاً جعل الحاضرين يقفون في أماكنهم مرّةً أخرى، وفجأةً سمعتها تنادي على أسمائنا، أنا وإخوتي، وسمحوا لنا

بصعود المسرح لتسلُّم هدايانا. أحسستُ أنّني غائبةٌ عن الوعي، وسرى بداخلي شعورٌ بالفرحة العارمة توغّل حتّى أطراف أصابع يديّ وقدمي. فتحت هديّتي، وكانت عبارة عن لعبة «بازل» صغيرة.

مكثنا يومين في *«مسكن إيواء فالدهايم»*، ثمّ اصطحبنا أقاربنا في سادس يومٍ لنا في برلين الغربيّة إلى مقرّ الشّرطة. رأينا شوارع المدينة، وقد امتلأت بالبشر مُجدّداً، وهو ما أشعرنا بالارتياح والاطمئنان، وعندما وصلنا إلى مقرّ الشّرطة تفوّه أبي بثاني كلماته الألمانيّة بنفس القدر من الشّجاعة والحرج، وقال للضّابط المسؤول: «لجوء».

لم يستطع أن ينطق هذه الكلمة بطريقةٍ صحيحةٍ على الرّغم من أنّه كان قد تمرّن عليها مئات المرّات من قبل، وذلك لأنّ نطق حرف الـ «y» في كلمة «Asyl» كان صعباً على لسانه الفارسيّ، فكان ينطقه مثل حرف «الواو»، وتخرج الكلمة من فمه «Asul». لم يكن قريبانا قد أجادا اللّغة الألمانيّة بعد، ولكنّهما بذلا قصارى جهدهما ليشرحا للموظّف أنّنا نريد أن نتقدّم بطلب لجوء. استغرقت عمليّة التّسجيل عدّة ساعات، ولكنّ الحرارة في مركز الشّرطة كانت دافئةً لحُسن الحظّ، وبعد أن اجتزنا جميعنا اختبار الصّبر بنجاحٍ أصبحنا رسميّاً من «طالبي لجوء»، وصار لدينا مستندات ألمانيّة تثبت هُويّتنا، وأُخطِرنا رسميّاً أنّ علينا الامتثال للإدارة الألمانيّة بدءاً من هذه اللّحظة، والالتزام بالإقامة في الأماكن التي تحدّدها لنا السّلطات. ردّ أبي على الضّابط قائلاً: «سنفعل ما تطلبه منّا كلّه. نشكركم لاستقبالكم إيّانا».

ترجم قريبي ما قاله أبي للضّابط المسؤول، ولكن الآخر لم يردّ، بل طلب إلينا أن نأتي معه فقط. قاموا بنقلنا إلى مَسكن إيواءٍ آخر، ولكنّه كان بعيداً كلّ البعد عن عالم الأساطير، كان عبارة عن مستشفى قديم حوّلوه إلى مَسكن إيواء. أعطونا غرفةً كبيرةً، فيها ستّة أسِرّةٍ من أسِرّة المستشفيات التّقليديّة، وقضينا ليلة رأس السّنة في تلك الغرفة مع اثني عشر فرداً من أُسرة السّيّد محقّدي التي جمعنا القدر معها في هذه الرّحلة. كانت ليلةً مُرعبةً، وظللتُ أدعو طوال اللّيل أن تمرّ بأسرع ما يمكن. لم يكفّ أبناء السّيّد محقّدي الصّغار عن البكاء طوال اللّيل، فهُم لم يأتوا مثلنا من

أصفهان، بل من طهران التي عاشوا فيها ليالي من القصف. كان صوت الألعاب النّاريّة في ليلة رأس السّنة يذكّرهم بأصوات القنابل؛ ولذلك كانوا يرتجفون من الخوف. بقينا جميعاً في الغرفة منتظرين أن تمرّ اللّيلة بسلامٍ، وحين بدأت الاحتفالات، وسمعنا دويّ الألعاب النّاريّة لأوّل مرّة، انتابنا شعورٌ بالهلع توغّل حتّى أطراف أصابعنا وأقدامنا، بل ووصل أيضاً إلى طرف كلّ خصلةٍ من خصلات شعرنا. لم نستوعب حينئذٍ أنّه صوت الألعاب النّاريّة، ومع ساعات الصّباح الأولى هدأت أصوات الألعاب النّاريّة في الخارج، وأصوات الأطفال في الدّاخل، وشعرت بالارتياح لعودة الهدوء أخيراً إلى المكان.

تساقطت الثّلوج بكثافةٍ عدّة أيّام من شهريّ: كانون الثّاني/يناير، وشباط/فبراير، وسادَتْها أجواءٌ قارسة البرودة، وعرفنا لأوّل مرّةٍ ما يعنيه أن تنخفض درجات الحرارة إلى تحت الصّفر. لم تكن لديّ أيّة فكرةٍ عن هذا الأمر. حصلنا على ستراتٍ ثقيلةٍ من غرفة الملابس القديمة، وأودِعنا في مَسكن إيواءٍ آخر، وبينما كان الألمان يتجمّدون في الخارج من البرد، ويواصلون أعمالهم اليوميّة انشغلنا نحن في الدّاخل بالتقاط الحَصبة، والجدريّ، والقمل من مساكن الإيواء المختلفة. رأينا كيف كان اللّاجئون يحوّلون حياة بعضهم إلى جحيمٍ في مساكن الإيواء، فقد اعتاد الإيرانيّون وصف العرب بـ«الهَمج المتوحّشين» وكان العرب يدعونهم بـ«الكلاب المتعجرفة»، وكلّهم يشتمون ذوي البشرة السّمراء ناعتين إيّاهم بـ«الكافرين النّجسين»، وعلى الرّغم من وجود هذا العدوّ المشترك بين الطّرفين، الذي تمثّل في أصحاب البشرة السّمراء، إلّا أنّ الإيرانيّين والعرب ظلّوا أعداءً، وعندما لَحظت السّلطات ذلك العداء بين الإيرانيّين والعرب، قامت بالفصل بين هذين الطّرفين اللّدودين، وأودعت كلّاً منهما في قسمٍ منفصلٍ، لكنّ هذين القسمين كانا متّصلين فيما بينهما بسُلّمٍ مُشترك.

كنّا -نحن الصّغار- كثيراً ما نلتقي على ذلك السُّلّم بصبيٍّ عربيٍّ مُخيف يتزعّم شلّةً من أتباعه. كان ضخم البنية، وبدين الجسم، إلى جانب امتلاكه صوتاً مرتفعاً للغاية. كان يتربّص بنا على السُّلّم لكوننا أطفالاً إيرانيّين، وينهال علينا بالشّتائم، ويدفعنا، ويصطدم بنا عن عَمد. كنّا نخشاه كثيراً إلى درجة أنّنا لم نعد نذهب إلى ذلك السُّلّم

بمفردنا أبداً.

ذات يومٍ فوجئنا به وبأصدقائه أمامنا على السّلّم، وبدأوا بالبصاق علينا، وكانوا مستمتعين بذلك؛ لأنّهم كانوا قد تناولوا في الحال بعض الشّوكولاتة، وكانت خيوط بصاقهم البنّيّة اللّزجة المثيرة للاشمئزاز تلتصق بملابسنا. كدنا ننفجر من الغيظ، وأسرعنا بالعودة إلى غرفتنا، كانت أمّي قد عادت في الحال من المطبخ، بعد أن غسلت الصّحون، حكينا لها ما حدث بالتّفصيل وسط أصوات بكائنا العالية. كانت أمّي في تلك الفترة متوتّرةً جدّاً بسبب قلقها على وضعنا بوصفنا لاجئين، ففقدت أعصابها، وخرجت أمامنا مندفعةً من الباب مثل موقدٍ يتصاعد منه الدّخان. توجّهت إلى السّلّم، وأمسكت بالصّبيّ، وبدأت تصيح في وجهه بالفارسيّة، وعلى الرّغم من كونه ضخماً، وفي مثل حجمها تقريباً، إلّا أنها بدت مخيفةً، وهي منحنية فوقه، كأنّها عملاقٌ يزداد ضخامةً كلّ لحظة، سرعان ما بدأ الصّبيّ ينكمش أمامها. في حياتي كلّها لم أسمعها تصيح بهذا الصّوت العالي من قبل.

صرخت في وجهه قائلةً: «يا لكَ من صبيٍّ سيّئٍ عديم التّربية! لِمَ تضايق من يصغرونك سنّاً؟ هل أنت جبان؟ ألا ترى أنّنا جميعاً فاض بنا الكيل من المشكلات؟ هل تريد أن توقع نفسك في المتاعب؟ هل تريد أن تعرف كيف يشعر المرء حين يتعرّض للضّرب ممّن هُم أكبر منه سنّاً؟». ولم تنتظر أمّي إجابته عن أسئلتها العديدة، بل رفعت ذراعها إلى أعلى قبل أن تفرغ من حديثها، وانهالت على وجهه بصفعةٍ مدويّةٍ، وهي تقول: «خذ هذه إذن!». كانت يدها لا تزال مبتلّةً، وممتلئةً برغوة الصّابون من غسيل الصّحون، فانتشرت فقاعات الصّابون في الهواء، ثمّ هبطت إلى الأرض. فَرِحتُ بانتصارنا، وكان شعوراً رائعاً بالفعل! ثمّ استدارت أمّي ورحلت، ومشينا نحن وراءها ككتاكيت صغيرةٍ مذعورةٍ تحتمي بأمّها. شعرتُ بارتياحٍ؛ لأنّني لم أكن في مكان الصّبيّ، حتّى إنّي أشفقت عليه بعض الشّيء، لكنّ هذا الشّعور لم يدُم سوى عشر دقائق فقط؛ لأنّنا فوجئنا به يقف أمام باب غرفتنا ببنيته الضّخمة الفتية حاملاً في يده ساطوراً لامعاً، وعلى الرّغم من أنّني ذعرت عندما رأيته إلّا أنّني لم أستطع أن أكتم ضحكةً خافتةً خرجت منّي رغماً عنّي كفقاعات الهواء في كأس الشّامبانيا،

وذلك لأنّني رأيت آثار أصابع أمّي ما تزال مطبوعةً على خدّه الأيسر. بدا خدّه الأحمر بطبعة أصابعها البيضاء كزهرة خشخاشٍ وحيدةٍ على خلفيّةٍ ورديّةٍ، كانت رغوة الصّابون لا تزال تتدلّى منه على هيئة منقارٍ صغير.

لِحُسن الحظّ أنّ ذلك الأحمق لم يتسلّل عبر الرُّدهة خلسةً، بل أحدث ضوضاء غطّت على صوت الهَزج والمَزج الذي يسود رُدهات مساكن الإيواء عادةً. حين سمع الإيرانيّون صوته خرجوا مندفعين من غرفهم ليروا ماذا يحدث في الخارج، فهم بعض الرّجال ما يحدث على الفور، فتصرّفوا بسرعةٍ وذكاءٍ، واستطاعوا أن يمسكوا بالصّبيّ قبل أن يهجم بالسّكّين على أمّي. استُدعيَ حارس المبنى، وإدارة المخيّم، والشّرطة التي وجدت أربعة سكاكين أخرى في ملابسه، ومنذ ذلك الحين، لم يتعرّض ذلك الصّبيّ البدين ذو الصّوت العالي إلينا قطّ. لا بدّ من أنّه حصل من أبيه على «علقة ساخنة» كما يقولون.

تلك كانت قصة أخرى جديدة أضفناها إلى قصصنا عن مساكن إيواء اللاجئين، بما فينا حارس المبنى.

كي لا نجنّ داخل مَسكن الإيواء، قام أبي بشراء تلفازٍ «أبيض وأسود» من أحد أسواق السّلع المستعملة، أو تلك التي يطلقون عليها في ألمانيا اسم «أسواق البراغيث». استطاع هذا التّلفاز أن يغيّر حياتي اليوميّة فصرت من متابعي وعشّاق برامج التّلفاز في ألمانيا الغربيّة. شعرتُ أنّه يأتي بنسيمٍ عليلٍ من العالم الخارجيّ، ويلطّف به أجواء غرفتنا الكئيبة الحارّة.

كانت فرصةً رائعةً بالنّسبة إليّ أن أتمكّن من رؤية هذا العالم الخارجيّ المجهول من دون أن أضطرّ إلى مغادرة غرفتي الآمنة، ومن دون أن أُجبَر على التّعامل مع أناسٍ لا أفهمهم، ومن دون أن يتعرّض كلّ إصبعٍ من أصابعي للتجمّد من البرودة، ومن دون أن أشعر بالنّاس، وهُم يرمقونني بنظراتهم في الشّارع. كان بإمكاني أن أشاهد كمّ السّلع والمنتجات المتنوعة التي يُعلَن عنها في التّلفاز، وأن أتعرّف إلى

«سيّدة الأخبار الأولى». عشقتُ الإعلانات، وأفلام الرّسوم المتحرّكة، دُهشت حين رأيت الممثّلين يظهرون في التّلفاز بأجسادٍ نصف عاريةٍ، ودُهشتُ أكثر عندما رأيت الممثّلات يظهرنَ في التّلفاز شبه عاريات.

على الرّغم من ذلك، انجذبنا أنا وإخوتي إلى هذا العالم الخارجيّ كقطع المعدن الصّغيرة التي تنجذب نحو المغناطيس.

ذات يومٍ اكتفينا من مشاهدة التّلفاز، ولبّينا نداء العالم الخارجي، ذهبنا كي نستكشف الواقع شيئاً فشيئاً، كقططٍ صغيرةٍ تخرج لأوّل مرّةٍ إلى حديقةٍ واسعةٍ، وتستكشف كلّ جزءٍ فيها.

كانت خطوةً جديرةً بالمخاطرة؛ لأنّنا اكتشفنا مكاناً دافئاً ومذهلاً لا مثيل له في أوروبّا كلّها، كان في إمكاننا أن نقضي فيه يوماً كاملاً، ونستمتع فيه بوقتٍ رائعٍ من دون أيّ مقابل؛ مركز التّسوّق العظيم *«كاوفهاوس دِس فستِنس»*، أو ما يُطلِق عليه الألمان اختصاراً *«كا ديه فيه»*. لا يُباع في هذا المركز سوى السّلع الفاخرة فقط. رأينا هناك أشياء لم نرها من قبل في أيّ مكانٍ آخر: من ألعاب، وملابس، ومأكولات، وغيرها من أفخم وأجود المنتجات.

أمضينا في ذلك العالم السّاحر يوماً تلو الآخر، وأتذكّر أنّنا حين دخلنا القاعة المكشوفة للمرة الأولى وقفنا في أماكننا بأفواهٍ مفتوحةٍ وسط حالةٍ من الذّهول. كان كلُّ شيءٍ من حولنا من الذّهب والزُّجاج، ومن مكانٍ ما يُسمع طنين مصعدين فاخرين معلّقين في الهواء يذكّران بأفلام الجاسوسيّة الأمريكيّة.

كنّا نرى المصاعد على هيئة خنافس من الزّجاج تحمل بداخلها مخلوقاتٍ بشريّة. لم نكن نملّ قطّ من الوقوف بمفردنا ساعاتٍ طويلةً في القاعة المكشوفة نتسامر مع بعضنا، ونشاهد تلك الخنافس الزّجاجيّة، وهي تزحف إلى أعلى وأسفل. كانت حكاياتنا وأفكارنا لا تنفد أبداً، والوقت يمرُّ بنا مُسرعاً كمياه نهرٍ متدفّقةٍ بلا نهاية.

ذات يومٍ دخلنا القاعة المكشوفة، فوجدنا أمامنا مسرحاً صغيراً ينتظر أمامه مجموعةٌ من النّاس، بعضهم جالس وبعضهم الآخر واقف، انضممنا إليهم، جلست على الأرض أمام المسرح مباشرةً، رأيتُ أمامي على المسرح دميةً واحدةً متداعيةً ومكوّمةً على الأرض، لم يبدُ منها سوى ظهرها. كنتُ متشوّقةً لرؤية وجهها، وأخيراً جاء رجُلٌ يرتدي ملابس سوداء، وصعد خشبة المسرح. صفّق له الحاضرون، وعُتّمت الأضواء في القاعة. التقط محرّك العرائس الخيوط في يَده، وبدأت الدُّمية تستيقظ من نومها على أنغام موسيقا رائعة وحزينة، كانت الدُّمية على شكل مهرّجٍ حزين، عيناه السّوداوان الواسعتان تنظران إلينا بفزعٍ وأسى. كان المهرّج يتلفّت حوله كأنّه لا يعرف المكان الذي استيقظ فيه. ظلّ واقفاً في مكانه، ثمّ نظر إليّ من بين الحاضرين جميعهم. نظر إليّ نظرةً عميقةً، وشعرتُ أنّه خطف قلبي.

بدا المهرّج سعيداً حين اكتشف أنّ لديه أرْجُلاً، سار بضع خطواتٍ إلى اليسار، وبضع خطواتٍ إلى اليمين، ونظر إليّ بعيونٍ ملؤها الفرح، فقلت له: «أجل، أنظر! أترى كم جميلٌ أن يكون لديك أرْجُل؟ هيّا! اِجْرِ هنا وهناك، واستمتع بحياتك!». لكنّه فجأةً رأى ساق محرّك العرائس في الخلف، ولمْ يفهم في البداية ماذا عساها أنْ تكون. نظر إلى السّاق من أسفل إلى أعلى حتّى رأى مُحرّك العرائس يمسك بالخيوط والمقابض الخشبيّة. حدّق إليه طويلاً، ولكنّني لم أستوعب حينها ما حدث، ثمّ أمسك المهرّج بأحد الخيوط وجَذبه، فتحرّكت يده المعلّقة في هذا الخيط. ترك هذا الخيط من يَده، وأمسك بآخر، واكتشف حينها أنّه مربوطٌ بساقه، فرفع رأسه إلى مُحرّك العرائس، ثمّ سرعان ما أدار وجهه مرّةً أخرى، وخبّأه بين ذراعه وانخرط في البكاء.

شعرتُ وقتها بحملٍ ثقيلٍ على قلبي. استوعبتُ عندئذٍ ما حدث، وتمنّيتُ آلاف المرّات لو لم يكتشف المهرّج وجود محرّك العرائس، لكنّ الأوان كان قد فات. انكسر الضّوء حزناً. لمْ أرَ في حياتي ضوءاً منكسراً من شدّة الحزن كهذا الذي رأيته في تلك اللّحظة. مزّقت الموسيقا قلبي. جلستُ هناك أترقّب ما سيحدث، وأنا حابسة أنفاسي، وظلّ المهرّج هو الآخر في مكانه لا يتحرّك. وقف في مكانه يفكّر لوهلةٍ بدا أنّ الزّمن

توقّف عندها، بعدها أمسك بالخيط المربوط في ساقه مرّةً أخرى، والتفت إليّ، ثمّ أومأ برأسه ليشجّع نفسه، وقام بقصّ الخيط.

كان هناك شيء آخر أريد قوله، لكنّني لم أستطع أن أتفوّه بأيّة كلمة. أخذ محرّك العرائس الخيط المقصوص، وأمسكه بغضبٍ أمام المهرّج، ولكنّه عندما همّ بإصلاحه، هزّ المهرّج رأسه معبّراً عن رفضه، وهو ما أثار حيرة محرّك العرائس وكذلك المتفرّجين. ظللتُ أتوسّل إليه أن يعود إلى صوابه، ولكنّه كان قد توقّف عن النّظر إليّ، واستأنف لعبته الحزينة، وأخذ يقصّ خيطاً تلو الآخر، إلّا أنّ أبشع لحظةٍ بالنّسبة إليّ هي تلك اللّحظة التي قصّ فيها الخيط المربوط برأسه. تدلّى رأسه إلى الأمام، وانحجبت عنّي عيونه الحزينة الجميلة. قام المهرّج بقصّ الخيوط المربوطة به كلّها حتّى انهار جسده في النّهاية على خشبة المسرح، ولم يبق منه سوى يدٍ واحدةٍ معلّقةٍ في الهواء. تمنّيتُ ألّا يكون قد مات، وصُدمتُ حين رأيت يده هي الأخرى تهوي إلى الأرض.

أُضيئت الأنوار في القاعة، وصفّق الحاضرون ونهضوا من أماكنهم ليذهب كلٌّ منهم في طريقه، وظللتُ أنا وإخوتي جالسين أمام المسرح لوهلةٍ. كنتُ عاجزةً عن الكلام، وكذلك إخوتي، وانهمرت الدّموع على خدّي.

اكتشفنا فيما بعد أنّهم يقدّمون هذا العرض ثلاث مرّاتٍ يومياً. كنتُ أحرص على الجلوس يومياً في المكان نفسه أمام المسرح مباشرةً لأشاهد العُروض كلّها، وفي كلّ مرّةٍ كنتُ لا أتمالك نفسي من البكاء.

في يومٍ من الأيّام سألنا بعض معارفنا الإيرانيّين ما إن كنّا نريد الذّهاب معهم لمشاهدة جدار برلين. لم أكن أريد الذّهاب معهم؛ لأنّ هذا كان يعني أنّني سأضطرّ إلى تفويت عَرض محرّك العرائس في مركز *«كا ديه فيه»*. حاولوا إقناعي بالذّهاب بحُجّة أنّ الجدار معلمٌ تاريخيٌّ ليس له مثيل في أنحاء العالم كلّها، وأنّ على المرء أن يراه ولو مرّةً واحدةً في حياته، خاصّةً أنّني شاهدت العَرض مرّاتٍ كثيرةً قبل ذلك،

ويمكنني مشاهدته مُجدّداً في اليوم التّالي.

لكنّني أردتُ أن أذهب لمشاهدة دُميتي المتحرّكة، فأغريتُ أمّي عن استعدادها لاضطحابي إلى مركز *«كا ديه فيه»*.

كنّا قد تعلّمنا بعد فترةٍ قصيرةٍ من انتقالنا إلى ألمانيا أنْ نمشي في الشّوارع، ونحن ناظرون إلى الأسفل، وليس إلى الأمام، وأنْ نمشّط بأنظارنا أرصفة برلين قبل أنْ نطأها بأقدامنا؛ لأنّها عادةً ما تكون ملبّدةً بأكوامٍ من براز الكلاب. لم نكن نتخيّل أمراً كهذا، ولم يكن يتناسب قطّ مع الصّورة التي رسمناها –بوصفنا إيرانيّين- في أذهاننا عن النّظافة والنّظام في ألمانيا.

- «انتبهي ألّا تطئي بقدمكِ براز الكلاب مرّةً أخرى. تعرفين أنّ أمّي تكره تنظيف أحذيتنا، وكِدتِ تتسبّبين أمس في منعنا من الذّهاب إلى *كا ديه فيه*». هذا ما قاله لي أخي الأصغر سناً، والأكثر حذاقةً بين أخويّ.

رددتُ عليه قائلة: «أجل، أعرف، وأعدك أن أنتبه اليوم أكثر».

برؤوسٍ منحنيةٍ، ونظراتٍ ثاقبةٍ مشينا فوق أكوام الثّلج التي كانت قد تراكمت هناك على مدى أيّامٍ من دون أن يزيحها عن الرّصيف، فجأةً وجدنا شيئاً رائعاً أمامنا؛ عثرنا على عُملةٍ فضّيّةٍ مكتوبٍ عليها «2 مارك»، رأيناها تلمع داخل الحفرة الرّماديّة التي أحدثتها، وهي تسقط في الثّلج. توقّفنا في منتصف الطّريق، كان النّاس حين يمرّون بجوارنا يُتمتمون بشيءٍ غير مفهومٍ، أو يصطدمون بنا عن عَمْد. التقط أخي العُملة المعدنيّة من الحفرة، وأخذ يَزِنُها في يَده، ولكنّه أعطاها لي حين طلبتُ إليه أنْ أمسكها. ظللتُ أنظر إليها لوهلةٍ، ثمّ قلت له: «هذا أجمل شيءٍ عثرت عليه في حياتي».

تذكّرت حينها المرّة التي حصلتُ فيها على لقب «ملكة هُواة الجَمْع بلا منازع» بين

إخوتي جميعاً. كنتُ قد جمعت آنذاك بضعة زهور هندباء متطايرة، وبعض الصّراصير الميتة الضّخمة التي كان أكبرها في مثل حجم سبّابتي، وكان لديّ أيضاً مجموعة من ورق البونبون البرّاق، ومجموعة أُخرى من ورق البونبون غير اللّامع. في أحد الأيّام عثرتُ على حشرة «فرس نبي» ضخمة كانت قد سقطت ميتةً من عنقود عِنَب. على الرّغم من أنني كنتُ قد عثرت على الكثير من الأشياء من قبل، إلّا أنّ هذه العُملة التي وجدناها فاقت كلّ شيء.

سألني أخي: «ماذا سنفعل بها؟».

- «لديّ فكرة. يمكننا أن نشتري بها كيسين كبيرين من حلوى *«الجوميبِرشن»*، وربّما سيتبقّى منها ما يكفي لشراء لبان من الماكينة». فردّ عليّ أخي قائلاً: «كلّا. دَعكِ من هذا الكلام الفارغ. علينا أن نشتري بها شيئاً يمكننا أن نحتفظ ونستمتع به إلى الأبد. أتفهمين ما أقصده؟».

كنتُ أثق في رأي أخي؛ ولذلك وافقته على ما قال، وأنا مبهورةٌ بذكائه، ومتفاجئةٌ من حكمته في ذلك الموقف. انطلقنا في طريقنا إلى مركز *«كا ديه فيه»*.

كان هناك عالمٌ ضخمٌ من ألعاب الأطفال في انتظارنا، فاتحاً لنا أبوابه في مركز التّسوُّق. أمضينا في البداية وقتاً طويلاً عند قسم السّيّارات التي تعمل بجهاز التّحكُّم عن بُعد، ثمّ في قسم عرائس *«الباربي»*، ولكنْ سُرعان ما اكتشفنا أنّه مهما أمسكنا من الألعاب، وقلّبنا العُملة في كفوفنا يميناً ويساراً، فإنّ نقودنا لن تكفي أبداً لشراء أيّ شيء. شعرنا فجأةً أنّ هذا العالم الضّخم الذي فتح لنا أبوابه قد ضاق وانكمش. قرّرنا بعدها أن نتفقّد قسم السّيّارات البلاستيكيّة، والتّماثيل الصّغيرة، لكنّ نقودنا لم تكن تكفي لشراء أيٍّ منها، وعلى الرّغم من ذلك فلم نفقد الأمل، انتهى بنا المطاف أمام رفٍّ كاملٍ من تماثيل صغيرةٍ للغاية، كانت متوفّرةً بالألوان جميعها ما عدا الأزرق، كان ثمن كلّ قطعةٍ تسعة وتسعين *بفينيج* فقط لا غير. اخترتُ أنا «سنفوراً» أحمر اللّون، واختار أخي الأخضر. كنتُ في منتهى السّعادة بما اخترناه. توجّهنا

بعدها أنا وأخي بكلّ فخرٍ إلى أمين الصّندوق كأيّ طفلين نجحا في اتّخاذ القرار الصّائب والحكيم، وجدنا سيّدةً جافّة الطّباع تضع على وجهها كمّاً كبيراً من مساحيق التّجميل، شعرها مرفوعٌ على هيئة كعكة، أنهت فرحتنا بسرعة، وضعت في يد أخي ما تبقّى من النّقود، الاثنين *بفينيج*، وكيساً صغيراً وضعت به السّنافر، ثمّ قالت شيئاً فظّاً من دون أن تلتفتَ إلينا، ثمّ نظرت من فوق نظارتها إلى المنضدة لترى مشتريات الزّبون التّالي.

ما من شيءٍ كان بإمكانه أنْ يعكّر فرحتنا، ولا أستطيع أنْ أنكر أنّني أعجبتُ في داخلي بشَعرها الأصفر. استأذنّا أنا وأخي بالانصراف بأسلوبٍ مهذّبٍ، وركبنا إحدى الخنافس الزّجاجيّة، وكلّنا ثقة بقرارنا الحكيم.

استطعنا في ذلك اليوم أن نعود بقطعةٍ، ولو صغيرة، من ذلك *«المول»* الفاخر إلى مسكن إيواءَ اللّاجئين. كنّا واثقين أن أبي وأمّي سيثنيان على قرارنا الحكيم بمجرّد عودتنا. جَرينا عبر الرُّدهة الطّويلة، سَددنا أنفينا عند الحمّامات، ومَررنا بغُرف اللّاجئين الآخرين كافّةً، سمعنا وراء أحد هذه الأبواب طفلاً يبكي، وأباً يصرخ، شعرنا أنّ ما من طفلٍ آخر يمتلك لعبةً فريدةً من نوعها مثلنا. وصلنا أخيراً إلى غرفتنا في نهاية الرُّدهة، تلك الغرفة التي بها ثلاثة أسِرّةٍ معدنيّةٍ صدئةٍ من طابقين، تشغل مساحتها الكلّيّة، وعندما دخلنا الغرفة رأينا بعض معارفنا الإيرانيّين يجلسون إلى طاولةٍ صغيرةٍ محشورةٍ في أحد الأركان يشربون الشّاي. كانوا في مزاجٍ جيّدٍ، وأصواتهم تُجلجل في أنحاء الغرفة. جَرى أخي نحو أمّي، وأخرج لها السّنافر الصّغيرة من الكيس، بينما انفجرتُ أنا في الحديث قائلةً: «ماما، عثرنا على 2 مارك، واشترينا بها هذه التّماثيل، أردنا في البداية أن نشتري جوميبِرشِن، ولكنّنا ذهبنا بعدها إلى مركز *كا ديه فيه*...».

سُرعان ما غطّت أصوات الضّحك العالية على صوتي، وقبل أن يتمكّن أخي من إخفاء السّنافر الصّغيرة في قبضة يده مرّةً أُخرى، انتزعها أحدُ الرّجال من يده، ووضعها على رأسه قائلاً: «ما رأيكم يا رفاق؟ هذا ما كان ينقصنا. إنّها الجواهر التي

كانت تنقصني لأكمل مجموعتي».

ضحك الرّجال، وأخذ أحدهم التّماثيل الصّغيرة، ووضعها وسط الطّاولة، وقال: «لنتحدّث بجدّيّة. لا أعرف هل أضحك أم أبكي. هل تعرفان كم هي قيمة 2 مارك؟ هذا ما تقرّران شراءه بهذه القيمة؟ هذه الخردة؟ ليتكما اشتريتما حلوى، لكنتما ملأتما بطونكما على الأقلّ بشيءٍ مفيد، عوضاً عن فضلات الطّعام التي يقدّمونها لنا هنا».

أخذ الرّجال يتناقلون التّماثيل فيما بينهم متنافسين في الشخرية منها، إلى أن انفجروا جميعاً في النّهاية في نوبةٍ من الضّحك العارم. شعرتُ بالحزن والغضب لِما حدث. أخذنا أنا وأخي السّنافر، وخبّأناها هي والاثنين *بفينيج*، ما تبقّى من النّقود، في علبة زبدةٍ صغيرة. كنّا أنا وأخي وأختي الصّغيرة نحتفظ في هذه العلبة بما نجده من كنوز، من بينها كوزُ صنوبرٍ، ومدفعُ مفرقعاتٍ كتلك التي تُستعمَل في احتفالات ليلة رأس السّنة، تكون ملفوفةً بورقٍ لامعٍ، وثماني عشرة خرزةً حمراء، وكمّ كبير من الملصقات التي تشبه ما يوضع على ألواح الشّوكولاتة، التي يعدُّها بعضهم عديمة الأهمّيّة، فيتخلّص منها.

إنّ هذا الكنز الذي كنّا نحتفظ به في علبة الزّبدة كان يمدّني بالشّجاعة، ويحلّي وطني الجديد في عيني، ذلك المكان السّاحر الذي تجد فيه الكنوز مخبّأةً تحت أكوام الثّلج .

كارلسروه
KARLSRUHE

نهرٌ يتعدّى طوله الألف كيلومتر، ويرمز طوال رحلته الطّويلة إلى الحُرّيّة؛ إنّه «نهر الرّاين»، واسمه هذا يليق به حقّاً، فهو مُشتقٌّ من فعل «رينّن» الذي يعني في الألمانيّة «يسري» و«يتدفّق». ينبع نهر الرّاين من «بحيرة توما» الواقعة في جبال الألب، وهي بحيرةٌ هادئةٌ، مياهها نقيّةٌ كالمرايا. يخترق في طريقه وديان «مقاطعة جراوبوندِن» وصولاً إلى «بحيرة كونستانس»، ثمّ يطوّق مجراه الغابة السّوداء، ويواصل تدفّقه بمحاذاة سلسلة «جبال الفوج» و«جبال أودِنفالد» مروراً بـ«جبال الرّاين الصّخريّة»، ويواصل سريانه إلى «خليج كولونيا» تاركاً وراءه جبال «هونزروك» و«آيفل»، وهنا يبدأ الجزء الأخير من الرّحلة الذي ينساب فيه النّهر ببطءٍ وتأنٍّ عبر سهول هولندا الخلّابة، وتمتزج مياهه بمياه «بحر الشّمال» لتجوب أنحاء العالم جميعها، وما من شيءٍ من شأنه أن يعترض رحلة هذا النّهر العظيمة؛ لا إنسان، ولا جماد، ولا جيش، ولا حرس حدود، ولا حكومة، ولا جدار أيضاً.

على ضفاف «نهر الرّاين» عرفنا أنا وأسرتي معنى حرمان اللّاجئين من الحُرّيّة التي كانت الدّافع الرّئيس وراء هروبهم من بلادهم بحثاً عنها، ففي نهاية شهر فبراير 1986 رُحّلنا من برلين إلى كارلسروه، وأودِعنا في جُحْرٍ مُظلمٍ وكئيبٍ يُعرَف باسم

«المكتب المركزيّ لشؤون اللّاجئين». لم أفهم لماذا، كلّ ما فهمته هو أنّ هناك مسؤولاً ما في مصلحةٍ ما قرّر أن يُحيلنا إلى ولاية بادن فورتمبرج، وانتقلنا للسّكن في مَسكن إيواءٍ ضخمٍ يعيش فيه عددٌ هائلٌ من اللّاجئين من مختلف أنحاء العالم بصفةٍ مؤقّتةٍ، كلٌّ منهم جاء إليه مُحمّلاً بأحلامه، وكوابيسه، وتاريخه، ومصيره.

لا أتذكّر وجوه النّاس في هذا المسكن، سواء اللّاجئين أم الموظّفين.

في اليوم الذي وصلنا فيه إلى هذا المَسكن أشاروا إلينا بالوقوف في طابورٍ طويلٍ من اللّاجئين الذين ضاقت بهم الأرض، ولا يعرفون إلى أين يتوجّب عليهم الذّهاب بأنفسهم وبأفكارهم. كان الكبار يصطدمون بنا، ويدفعوننا معهم يميناً ويساراً، والرُّضّع يبكون، والكلّ يتحدّث في الوقت ذاته باللّغات الموجودة كلّها. بعضهم كان صوته يرنُّ في الأنحاء، وبعض الرّجال كانوا يدخّنون ملوّثين الهواء المتبقّي في المكان.

كان كلٌّ منّا يمسك بيد الآخر خشية أن نتوه عن بعضنا. كانت أمّي تحمل أختنا الصّغيرة على ذراعها بينما كان يبحث أبي عن شخصٍ ليسأله أين نحن، وما الذي يتوجّب علينا فعله. فوجئنا بموظّفٍ، لا أذكر من ملامحه سوى أذنيه الحفراوين، يصرخ في وجه أبي بأعلى صوته قائلاً: «هنا نتحدّث بالألمانيّة فقط!». صُدِم أبي من ردّ فعله؛ لأنّه سأله فقط إنْ كان يتحدّث الإنجليزية.

لمْ يتغيّر أيّ شيءٍ طوال الشّهر الذي مكثناه في ذلك الجُحر. كانت الغرف في ذلك المكان ضيّقةً، ومظلمةً، وقذرةً، وكنّا دائماً نشمّ روائح كريهة أشبه بروائح الحيوانات النّافقة في الطّوابق جميعها؛ أمّا المراحيض، فقد كانت مسدودةً في معظم الأحيان، وفي منتهى القذارة. كان اللّاجئون يتعاملون مع بعضهم بعدائيّةٍ شديدةٍ، وموظّفو المصالح يصيحون في وجوهنا بلا انقطاع. كانوا يعاملوننا كما لو كنّا مُجرمين، وكان المترجمون الفوريّون يعاملوننا بتحفّظ، كان من الواضح أنّهم يخشون الموظّفين. أخذ الموظّفون المسؤولون بصمات أبي وأمّي، والتقطوا لهم صوراً شخصيّة، منها

لقطة أمامية، وأخرى جانبيّة، كتلك الصّور التي يلتقطونها للمشبوهين لوضعها في سجلّهم الإجرامي، وكانوا يستدعوننا يوميّاً في مكاتبهم، ويطرحون علينا الأسئلة. وقع أبي على مستنداتٍ كثيرةٍ لم يُفهم المكتوب فيها بالضّبط؛ لأنّه ما من أحدٍ كان يشرح له محتواها بالتّفصيل لضيق الوقت، حتّى المترجمون.

كنّا ننتظر ساعاتٍ طويلةً في مبنى الإدارة أمام أبواب المكاتب المغلقة جالسين على كراسٍ قليلةٍ متناثرةٍ، نصفها مسكورٌ، ونصفها الآخر غير مُريح. في بعض الأحيان كانوا يطلبون منّا الانصراف بكلّ بساطة. كانت مُلاء الأسِرّة في ذلك المَسكن ممزّقةً، وعليها بقع بولٍ ودماءٍ لا ينظّفها الغسيل المتكرّر. كانوا يقدّمون لنا مأكولاتٍ ألمانيّةً، تُعَدُّ في مطبخٍ كبيرٍ لآلاف اللّاجئين، ولكنّ أجسامنا لم تكن معتادةً هذا الطّعام، فعجزت عن هضمه، وعانينا من اضطّراباتٍ هضميّةٍ مزعجة.

في المَسكن المؤقّت عملت بعض النّساء عاهرات، وكان تجّار المخدّرات يبخّون سمومهم، ويزاولون أنشطتهم المُشينة في كلّ مكانٍ، وانخرط العُزّاب في مشاحناتٍ وشجاراتٍ سوقيّةٍ يوميّاً. كنّا نكاد نموت من الخوف ألف مرّةٍ في كلّ ليلةٍ، لا سيّما عندما يبدأ الرّجال في شُرب الكحول لنسيان همومهم. كنتُ أسمع أصواتهم في الخارج، فأشعر أنّهم يصرخون في الفضاء الواسع في وجه القمر. لم يكن لغرفتنا الصّغيرة مفتاح كي نستطيع إغلاق بابها ليلاً، تلك الغرفة الضّيّقة التي عشنا فيها نحن السّتّة معاً. في النّهار لم يكن بإمكاننا المكوث في الخارج فترةً طويلةً بسبب برودة الجوّ. كانت الحياة في مَسكن الإيواء ذاك تشبه السّجن، الذي كان يزحف بظلاله الكئيبة على حياتنا اليوميّة شيئاً فشيئاً.

في ذلك المَسكن كُتب علينا نحن الصّغار أنْ نشعر بالملل، لم يكن هناك أيّ شيءٍ يمكننا أن فعله. كنتُ أقضي ساعاتٍ طويلةً وخدي في التّفكير في حياتنا، والتّساؤل عمّا إنْ كانت ستظلّ دائماً على هذا النّحو، وفي السّبب الذي دفع أبي وأمي لاستبدال هذه الحياة بحياتنا السّابقة في تركيا. أصبح أبي في حيرةٍ من أمره، وسقطت أمّي فريسةً للتّعب والإرهاق. رؤيتي لهما على تلك الحال جعلتني لا أجرؤ على طرح أيّة

أسئلةٍ عليهما.

كان ما نراه حولنا يتعارض مع إدراكنا الطّبيعيّ، وهذا ما جعلنا نشكّ في قوانا العقليّة، حتّى في حواسّنا الخمس. كنّا نشعر بالبرد في الوقت الذي يتصرّف فيه النّاس في الشّوارع كأنّهم يستمتعون بالأجواء الرّبيعيّة؛ كانوا يرتدون قمصاناً بأكمامٍ قصيرةٍ، ويجلسون في المقاهي المفتوحة. كنّا نتساءل: كيف لا يشعرون بالبرد؟ هل هذا البرد الذي نشعر به هو دفءٌ في حقيقة الأمر؟ هل حدث شيءٌ لجلودنا؟

من الأشياء التي حيّرتنا تلك المخبوزات الشّبيهة بـ«*الكرواسان*» التي يسمّونها «*هورنشِن*»، أو «القرون الصّغيرة»، وكانوا يقدّمونها لنا ضمن حصّتنا الغذائيّة. أتذكّر أنّنا عندما فتحناها للمرّة الأولى، ورأينا الحشوة بداخلها، اتّفقنا جميعاً على أنّها تبدو مثل اللّحم المفروم بلا شك، ولكنّنا حين قضمنا منها وجدنا مذاقها حلواً، واستطعمنا فيه نكهة البندق. إنّه لشعورٌ بشعٌ أن يتوقّع المرء طعماً مالحاً في فمه، ويُفاجأ بطعم مُسكّر. هل فقدنا حاسّة التّذوّق أم لم يعد بإمكاننا أن نصدّق أعيننا؟

الكثير من الأشياء التي كنّا نظنّها في الماضي أموراً عاديّةً، لم تعد كذلك، كالتّلفاز على سبيل المثال، الذي أصبح محظوراً لسببٍ غير مفهوم. أخبرنا أبي أنّهم يخشون أن تحترق الأجهزة. لم أدرك لِمَ صرخوا في وجوهنا حين سألناهم عن التّلفاز! انشغلت طويلاً بالتّفكير فيما إذا كان لديهم تحفّظ ما بشأن سلوكنا.

واكتشفنا كذلك أنّ المهارات التي جئنا بها من إيران لم يكن لها أيّة فائدةٍ هنا. لم يُبالِ أحدٌ بأنّ أبي رجُلٌ متعلّمٌ يجيد التّحدُّث بثلاث لغاتٍ، وليس شخصاً مُغفّلاً، ولم يُبالِ أحدٌ بالإنجازات التي حقّقها في حياته. لم يهمّهم سوى أنّنا لا نتحدّث اللّغة الألمانيّة. ألهذا السّبب فقط تحوّلنا في نظرهم إلى كائناتٍ طفيليّةٍ لا تفيد في شيء؟

حتّى أسماؤنا فقدت معناها. شعرتُ أنّ الموظّفين جميعهم اتّفقوا ضمنيّاً على كتابة أسمائنا جميعاً، بما في ذلك لقب عائلتنا، بطريقةٍ خاطئةٍ في أوراق إثبات الهُويّة التي

كانت تمثّل لنا أهمّيّةً بالغةً، وحين أدركتُ أنه ما من أحدٍ قد ينطق اسمي الآن كما اعتادت جدّتي على نطقه، أحسستُ بالعجز. ألم يعُد هذا اسمي، هل حصلت على اسمٍ آخر؟

لَحظتُ أيضاً كيف كان النّاس ينظرون إلى شعري الأسود المتجعّد بعَدِّهِ شيئاً فريداً من نوعه. كان بعضهم يراه مميّزاً واستثنائيّاً، وبعضهم الآخر ينفر منه، حتّى إنّ بعضهم كان يسمح لنفسه بتمرير أصابعه عبر خصلات شعري، ويخبرني أنّه يجدها ظريفةً، وهو ما لم يكن مختلفاً في حقيقة الأمر عمّا كانت معلّماتي تفعلنه في الماضي حين تسمحن لأنفسهنّ بلمس شعري من دون استئذان. منهم من أعطى نفسه الحقّ في أن يستجوبني بكلّ بساطةٍ، ويسألني: من أين أنا، وماذا أفعل هنا، وكانوا يعبّرون عن آرائهم في إيران والإيرانيّين من دون أن يُطلَب إليهم ذلك، ويعدّونه أمراً بدهيّاً.

بعضهم كان ينظر إلينا باشمئزازٍ، ويطلب إلينا صراحةً أن نغادر ألمانيا. كانوا يطلبون ذلك بلا خجلٍ، على الرّغم من عدم معرفتهم بنا. كانوا يقولون لنا: إنّ ألمانيا لا تسعنا. أكثر ما كان يُذهلني في الأمر هو عدم درايتهم بالوضع السّياسيّ في إيران.

أدركتُ أنّني لم أكن في الجنّة، ولا في بلاد الأساطير، وأنّ حياتي كطفلةٍ لاجئةٍ لن تكون ورديّةً على الدّوام، وبدأت أفقد الأمل في أن يكون لي حياةٌ، وبيتٌ، ومدرسةٌ، وأصدقاء مثل الأشخاص العاديّين.

أخيراً، أصدرت السّلطات قرارها في شهر آذار/مارس؛ قرّرت أن تنقلنا إلى مكان إقامةٍ جديدٍ إلى حين التّقرير بشأن طلب اللّجوء، وإن كانوا سيسمحون لنا بالبقاء في ألمانيا أم سيرحّلوننا إلى إيران.

انتقلنا إلى مدينةٍ جديدةٍ اسمها «هايدِلبرج»، ووضّح أحد الموظّفين لأبي طبيعة حياتنا في هذا المكان.

وأخبرنا أبي عن الحديث الذي دار بينه وبين هذا الموظّف.

قال لنا: «سيرسلوننا إلى مدينةٍ تقع على بُعد ساعةٍ من هنا، اسمها هايدِلبرج. علينا البقاء داخل حدود المدينة إلى أن يتّخذوا قرارهم النّهائيّ بشأننا، ويقرّروا ما إن كانوا سيمنحوننا حقّ اللّجوء أم لا. يجب علينا أن نمتثل لِما تطلبه السّلطات منّا».

سألته أمّي: «وهل سيسمحون لك بالعمل طبيباً في هايدِلبرج ؟».

ردّ عليها أبي قائلاً: «مع الأسف، لا؛ لأنّ طالبي اللّجوء لا يحقّ لهم مزاولة العمل بَعْد».

- لا يحقّ لهم مزاولة العمل؟ ماذا تقصد بـ «بعد»؟ إلى متى؟

- خمسة أعوام، على حدّ قولهم.

- خمسة أعوام؟ وماذا ستفعل في هذه الفترة؟ كيف سنكسب قوت يومنا؟

- لست متأكداً من مسألة الأعوام الخمسة، ربّما أسأت فهمها. ليس من الممكن أن تكون تلك رغبتهم، فنحن سنحصل من الدّولة على مبلغ يُسمى بـ«الإعانة الاجتماعيّة»، والأمر في الوقت نفسه يفوق استيعابي أنا أيضاً. أليس من المفترض أن يكونوا سعداء لأنّنا نعول أنفسنا؟ سنبحث عن محامٍ جيّدٍ فور وصولنا إلى هايدلبرج. دعينا ننتظر ونرى.

ثارت أمّي قائلةً: «لن أقبل حسنةً من الحكومة. لسنا فقراء، أو مُسنّين لنأخذ مساعدةً منهم. يمكننا أن نكسب قوتنا من عرق جبيننا. كنّا نعول في إيران أسرتين أخريين إلى جانب أُسرتنا، والآن أصبحنا مضطرّين إلى أن نعيش على المساعدات؟

ردّ عليها أبي قائلاً: «نعم، هذا هو القانون مع الأسف، ولا يحقّ لنا أيضاً كطالبي لجوءٍ أن نمتلك أيّة أموالٍ نقديّةٍ، بل سيعطوننا قسائم لكلّ شيء».

كادت أمّي تنفجر من الغضب، وقالت له: «هل هذه هي ألمانيا التي يحلم نصف البشر بالعيش فيها؟ أتساءل ما إن كان هروبنا قراراً صائباً. ربّما كان علينا البقاء في إيران، مثل الآخرين، فهُم مازالوا على قيد الحياة، ولم يحدث لهم شيء».

فقد أبي أعصابه، وصاح قائلاً: «تعرفين جيّداً أنّه لم يكن أمامنا خيارٌ آخر. هل تريدين أن يرتدي أبناؤك العصائب الحمراء على جبينهم؟ هل هذا ما تريدينه؟».

بهذه العبارة انتهى النّقاش بين أبي وأمّي. كنتُ سعيدةً على الرّغم من كلّ شيء؛ لأنّنا خرجنا من مَسكن الإيواء البائس القذر الذي عشنا فيه في كارلسروه. لم يكن النّاس يعيشون في ذلك المَسكن مثل البشر، بل كانوا عبارة عن أغراضٍ مكوّمةٍ داخل مخزن. شعرتُ في طريقنا إلى هايدلبرج أنّ الأمل قد عاد إليّ من جديد.

Telegram:@mbooks90

هايدلبرج
HEIDELBERG

يبدأ نهر «نِكار» رحلته في الغابة السّوداء كغديرٍ صغيرٍ يسري بين المناظر الطّبيعيّة الخلّابة، لكنّه سُرعان ما يتحوّل إلى نهرٍ جامحٍ وعظيمٍ يتدفّق عبر وادٍ ضيّقٍ في كنف الغابات والجبال في اتّجاه الشّمال. في الماضي البعيد، كانت شعوب «السلت» تسمّيه «الرّفيق الجامح»؛ لأنّ اسمه مُشتقٌّ من كلمة «نِك» الأوروبّيّة القديمة، وتعني «المندفع»، أو «الجامح»، ولكنّ نهر «نِكار» ليس رفيقاً جامحاً في حقيقة الأمر، بل هو بالأحرى رفيقٌ حبيسٌ، حاصره النّاس، وقيّدوه داخل مسارٍ من الخرسانة. أصبح منذ ذلك الحين يسري رغماً عنه عبر مسارٍ مستقيمٍ إلى الأسفل ليقوم بتبريد محطّات الطّاقة العديدة التي بناها البشر على ضفافه؛ ولذلك فهو لا يتجمّد أبداً، ويُعدُّ أكثر أنهار ألمانيا دفئاً.

عند نهر «نِكار» في هايدلبرج انتهت رحلتنا الطّويلة التي كانت قد بدأت بركوبنا الحافلة من أصفهان قبل مدّةٍ طويلة. حسبتُ هذه المدّة، وذُهشتُ حين اكتشفتُ أنّ أربعة عشر شهراً قد مرّوا بالفعل. قطعنا آخر جزءٍ من رحلتنا في شاحنةٍ بيضاء صغيرةٍ أقلّنا بها أحد موظّفي مَسكن الإيواء بكارلسروه في نيسان/أبريل 1986 من

كارلسروه إلى هايدلبرج.

أوقف الموظّف الشّاحنة أمام عمارةٍ سكنيّةٍ مدهونةٍ بالطّلاء الأخضر الدّاكن، وأشار إلينا بالنّزول، ثمّ أرشدنا، بعد أن أخذنا حقائبنا، إلى الطّابق الثّاني، وفتح لنا باب إحدى الشّقق، وأعطانا مفتاحها، ثمّ ودّعنا، وهَمّ بالانصراف، ولكنّ أبي لم يدعه يذهب. وقف في مكانه عاجزاً عن الكلام من شدّة الفرحة. لم يستطع أن يُعبّر عمّا أراد قوله باللّغة الألمانيّة فقط، فأخذ يكرّر عليه كلمة «شكراً»، تارةً بالألمانيّة، وتارةً بالإنجليزيّة: «*فييييلن دانك، دانـــــــكه، ثانك يووووو*». فاضطَرّت أمّي إلى أن تقول له في النّهاية: «دَع الرّجُل المسكين يذهب، فهو لا يعرف علامَ تشكره». فرح الرّجُل حين أطلق أبي سَراحه أخيراً، ونزل السُّلّم بخطواتٍ متسارعةٍ بينما يُتمتم بكلمة «*أوف فيدرزِن*» على نحوٍ عابرٍ، وكنّا قد عرفنا من أحد الإيرانيّين الذين قابلناهم في كارلسروه المعنى الحَرفيّ لكلمة «*أوف فيدرزِن*»؛ أي: «إلى اللّقاء». على الرّغم من انبهاريَ بهذه الكلمة إلّا أنّني لم أفهم لماذا قالها لنا هذا الرّجُل. لماذا، وأين يريد أن يرانا مرّةً أخرى؟

وضعت أمّي مفتاح الشّقّة في الكالون، وأغلقت الباب من الدّاخل. عندها عمّ السّكون في المكان، شعرنا أنّنا كالملوك. وعاد إليّ الشّعور بالأمان مرّةً أخرى. نسيتُ ما كان يشغل بالي كلّه، وخَلا رأسي من الأفكار تماماً.

تلك كانت المرّة الأولى منذ أشهرٍ التي نحصل فيها على مفتاحٍ خاصٍّ بنا. وددتُ أنْ يكون بإمكاني إغلاق الشّقّة، أقصد بيتي الجديد على نفسي، وأستريح. خشيتُ أن أسأل إن كان هذا هو بيتنا الجديد أم لا. كنتُ أخاف مجرّد التّفكير في أنّنا قد نضطَرّ إلى التّخلّي عنه يوماً ما؛ لأنّه كان في منتهى الجمال.

بدأنا نستكشف بيتنا الجديد شيئاً فشيئاً؛ كانت هناك رُدهةٌ طويلةٌ تؤدّي يميناً إلى ثلاث غرفٍ، ويساراً إلى الحمّام والمطبخ، وكلّ غرفةٍ تحوي دولاباً من خشب «*الأبلكاش*» البسيط، وعلى سريرين خشبيّين يتّسع كلٌّ منهما لشخصٍ واحدٍ فقط،

كان على كلّ سريرٍ من الأسِرّة السّتة مَرتبة، وبطّانية، ووسادة، وملاءة جديدة لا تزال مغلّفة، لكنّ الأثاث والفرش كان في المقابل قديماً ومُستهلكاً، والسّجّاد بالياً، ورائحته عفنة، ولكنّني لمْ أبالِ بذلك كلّه.

عندما دخلنا المطبخ وجدنا طاولة وستّة كراسٍ. قال لنا أبي منبهراً: «انظروا، لم يفُتْهم شيءٌ، ووضعوا لنا ستّ قطع من الأدوات كلّها! ستّة أكوابٍ، وستّة أطباقٍ، وستّ ملاعق، وستّ شُوَك، وستّ سكاكين. ستّ قطع من كلّ شيء! هذا لا يُصدّق! هذه الشّقّة من أجلنا، يمكننا العيش هنا!».

أحسستُ أنّ هناك نافذة قد فُتحت في رأسي، ودخلت منها ملايين الفراشات الملوّنة. شعرنا جميعاً بامتنانٍ شديدٍ، ولم نستطع أنْ نصدّق ما يجري حولنا من الفرحة. إنّ ما لاقيناه من كرمٍ في ذلك المكان غطّى على التّجارب التي مَررنا بها كلّها بصفتنا لاجئين في العام السّابق.

ذهبنا أنا وأخي الأوسط في البداية لننظر من النّوافذ المُطلّة على الشّارع. كانت نوافذ الشّقة كبيرةً تدخل منها تيّارات هواءٍ شديدة. تخيّلت كم سيكون الأمر رائعاً لو يتسنّى لي النّظر من هذه النّوافذ على الشّارع إلى الأبد من دون أنْ اضطرّ إلى مغادرتها. صرخ أخي صرخةً أفاقتني من أحلام اليقظة. كان قد اكتشف بقالةً تركيّةً على الجانب الآخر من الشّارع. نادينا الآخرين لينظروا من النّافذة.

- «تعالوا جميعاً، انظروا هنا! يوجد أتراك هنا». كان الأتراك بالنّسبة إلينا أناساً نفهم لُغتهم، وثقافتهم أقرب إلينا من ثقافة الألمان. كنّا نشعر في وجودهم كأنّنا في وطننا. كان بإمكاننا أن نسألهم عن أيّ شيءٍ، ونتلقّى منهم دوماً أجوبةً ودودةً ومساعدة؛ لذلك لم ننتظر أيّة لحظة، ذهبنا على الفور إلى تلك البقالة. كنتُ سعيدةً أنّني وجدتُ بهذه السّرعة مكاناً في الخارج يمكنني أن أشعر فيه بالأمان. تحرّرتُ على الفور من أيّة مخاوف كنتُ قد شعرتُ بها في يومٍ من الأيّام من العالم الخارجي. اشترينا بعض البقالة مستعملين النّقود التي كانت قد تبقّت معنا، وأعددنا في تلك

الأمسية أوّل وجبةٍ منذ أشهر. في مساء ذلك اليوم أفرغنا محتويات حقائبنا، ووضعنا ما فيها في الخزائن.

بعدها بأسبوعٍ تلقّى أبي وأمّي خطاباً بدا عليه من هيئته أنّه بالغ الأهمّيّة؛ ولذلك ذهب أبي للبحث عن شخصٍ إيرانيٍّ يُجيد الألمانيّة ليشرح له ما في هذا الخطاب، وعثر بالفعل على رجُلٍ قرأ له الخطاب، وأخبره أنّه من السّلطات، وأنّهم يبلغونه أنّ الأطفال في ألمانيا ينطبق عليهم قانون «التّعليم الإلزاميّ» لذا فعليه الإسراع بتسجيل أبنائه في المدارس. عاد أبي إلينا ودموع الفرحة في عينيه. لم يستطع أن يصدّق كم نحن محظوظون بالعيش في ألمانيا، ففي إيران، لم يكن للجميع الحقّ في الدّراسة والعمل، بل كانت تلك الفرص تقتصر فقط على أولئك الشّباب الذين شاركوا في الحرب، أو فقدوا على الأقلّ قريباً واحداً من الدّرجة الأولى في الحرب؛ أمّا في تركيا، فلم يكن مسموحاً لنا بالذّهاب إلى المدارس على الإطلاق.

نادانا أبي إليه، وشرح لنا المكتوب في الخطاب قائلاً: «نعيش في بلدٍ تحرّض فيه السّلطات على منح كلّ طفلٍ مقداراً جيّداً من التّعليم، وفرصةً لبناء مستقبله. أتفهمون ما أعنيه؟ إنّهم **يجبرونني** على إرسالكم إلى المدارس، هذا رائع!».

هذا الخبر لم يسعد أبي فقط، بل أسعدنا نحن الصّغار أيضاً؛ لأنّه كان سينقذنا من حالة الملل التي نعيش فيها منذ فترةٍ طويلة. كنّا قد انقطعنا عن الدّراسة منذ أكثر من سنة. شعرتُ أنّ التحاقي بالمدرسة من الخطوات المهمّة التي ستجعلني أشعر أنّني أعيش حياةً عاديّةً، أذهب فيها إلى المدرسة، ولديّ فيها أصدقاء كالنّاس العاديّين.

أعلنت «المدرسة الدّوليّة المتكاملة بهايدلبرج» عن استعدادها لقبولنا نحن الأربعة. بدأتُ يومي الدّراسيّ الأوّل في غرفة مدير المدرسة المريحة. رحّب بنا المدير بنظرةٍ مبتسمةٍ، وقام بمصافحة كلّ منّا على حِدة، وهو ما جعلني أتذكّر نظّار المدارس في إيران الذين كانوا يتجاهلوننا تماماً فقط لكوننا صغاراً.

بتلك البداية تحوّل يومي الأوّل في المدرسة إلى يومٍ مميّز، وبعد أن انتهينا من الحديث مع المدير، رافق أبي أختي الصّغيرة إلى الصّفّ الأوّل الابتدائيّ مع معلّمتها؛ أمّا نحن الثّلاثة، فذهب كلٌّ منّا بصحبة معلّمه، أو معلّمته إلى فصله. كان اليوم الدّراسيّ قد بدأ بالفعل، ورُدهات المدرسة خالية من التّلاميذ. استوعبتُ حينها أنّني سأدخل الصّفّ في منتصف الحصّة، فشعرتُ بحرجٍ شديدٍ، وظننتُ أنّ الموقف لا يمكنه أن يسوء أكثر من ذلك.

حاولتُ أن أكون فتاةً مطيعةً، وسِرتُ وراء المعلّمة، وأنا أتلفّتُ حولي بعينيّ الواسعتين، وأحاول بكلّ ما أوتيت من قوّةٍ أن أحفظ طريق العودة، وأن أتذكّر أين انعطفنا يميناً، وأين انعطفنا يساراً، حتّى أتمكّنَ من العودة إلى المكتب الإداريّ في نهاية اليوم، ومُلاقاة أبي، لكنْ حدث ما كنتُ أخشاه، ونسيتُ طريق العودة. شعرتُ بالذّعر يتسلّل إليّ شيئاً فشيئاً، ولم يبق أمامي إلّا أن أترك مصيري في يَد تلك المعلّمة.

مَررنا من بابٍ أحمرَ دوّارٍ ذي نوافذ مثلّثة، وجدتُ نفسي خارج المبنى مرّةً أُخرى، ولم أكن أعرف أين أنا. تساءلتُ: «أين تأخذني هذه المعلّمة؟». ولكنّه لم يكن لديّ وقتٌ للتّفكير طويلاً؛ لأنّها كانت تسير بمنتهى السّرعة، وكدتُ أعجز عن مواكبتها، وكانت تلتفتُ إليّ مراراً وتكراراً وتقول لي: «هلّا أسرعتِ من فضلكِ؟».

سِرنا مسافةً كبيرةً عبر باحة المدرسة إلى أنْ وصلنا في نهاية الأمر إلى مبنى آخر. رأيت من خلف نوافذه الكبيرة أطفالاً يرتدون ملابس قليلة، ويسبحون في حوض سباحةٍ صغير. تذكّرتُ حمّام السّباحة الذي كان لدينا في إيران، لكنّني لم أستوعب كيف يسمحون للأطفال بالسّباحة في المدرسة؛ لأنّ السّباحة في الأماكن العامّة كانت محظورةً في إيران. واصلتُ السّير مذهولةً ممّا رأيتُ، لَمحت المعلّمة في آخر لحظةٍ قبل أن تختفي وراء بابٍ آخر، نزلنا السّلالم بسرعةٍ، فوجدتُ نفسي فجأةً أمام صالة ألعابٍ رياضيّةٍ، وازددتُ ذهولاً لأنّني لم أكن قد رأيت مكاناً مثله من قبل؛ لعدم

وجود حصص ألعابٍ رياضيّةٍ في مدارس الفتيات في إيران. رأيت المعلّمة التي كانت ترافقني تتحدّث إلى معلّمة الألعاب الرّياضيّة الموجودة في الصّالة بصحبة مجموعة أطفالٍ في مثل سنّي. تحدّثتا إلى بعضهما لوهلةٍ قصيرةٍ، ثمّ انصرفت المعلّمة التي كانت ترافقني. شعرت في تلك اللّحظة بوحدةٍ شديدةٍ، وودتُ لو أنّ بإمكاني أنْ أعود إلى المنزل مرّةً أخرى.

لكنْ لحُسن الحظّ، عاملتني معلّمة الألعاب الرّياضيّة بمنتهى الطّيبة. انحنت فوقي، وبدأت تتحدّث إليّ بلغةٍ غريبةٍ تُنطق فيها الحروف بأصواتٍ عجيبةٍ لم تألفها أذني؛ منها ما يُنطَق «*أُوي*»، أو «*أُو*». حدّقتُ إلى فمها الذي بدا لي كأنّه ماكينة مشتريات، ولكنّني لم أستغرب حروف الـ «ü» و«ö» لحُسن الحظّ؛ لأنّني كنتُ قد تعوّدتُ عليها من سماعي للّغة التّركيّة. فرحتُ حين علمتُ أنّ الألمان لديهم هذه الحروف أيضاً؛ لأنّني كنتُ قد أجدتُ نطقها في تركيا بعد تدريبٍ طويل. لَحظت المعلّمة على الفور أنّني لا أفهم اللّغة الألمانيّة. حاولت أن تطرح عليّ أسئلةً أُخرى، ولكنّني لم أستطع الإجابة عنها. كان تركيزي مُنصبّاً على ما يحدث وراء ظهرها في صالة الألعاب من أشياء مُذهلة. نظرتُ إلى الأطفال الذين يتمرّنون على حلقتين معلّقتين، وأنا أتساءل عن سبب وجودي هنا. لم أكن قد رأيتُ صالات الألعاب الرّياضيّة، أو معدّات، وحلقات الجمباز سوى في الألعاب الأوليمبيّة في التّلفاز. كنّا قد اشترينا شرائط مُسجّلة للألعاب الأوليمبيّة من السّوق السّوداء؛ لأنّ أخي الأوسط كان شغوفاً بالرّياضة. الأطفال هنا كانوا في مثل عمري، يتنقّلون بين الحلقات، ويتدلّون منها، ويتمرجحون إلى الأمام وإلى الخلف كأنّهم قِرَدةٌ صغيرةٌ ورشيقةٌ خرجت في الحال من قصّة «ماوكلي في الأدغال». وقفتُ مذهولةً كأنّني تحت تأثير تنويمٍ مغناطيسيّ، فكّرتُ في أنّ هذه الحصّة مُخصّصةٌ للأطفال ذوي المهارات الرّياضيّة العالية، وأنّني جئت معهم عن طريق الخطأ. في تلك الأثناء، كان الأطفال قد لَحظوا وجودي، وتجمّعوا حولي. بدأوا جميعاً يتحدّثون في نفسٍ واحدٍ، وينهالون عليّ بآلاف الأسئلة. وأمسكت إحدى الفتيات بشعري الأسود الطّويل، الذي كانت أمّي قد سرّحته لي في هذا اليوم المهمّ على هيئة ذيل حصان. رحتُ أتطلّع في وجوه الأطفال من حولي، وأحاول يائسةً أن أفهم أيّة كلمةٍ وسط هذه الفوضى الصّاخبة، لكنْ من دون جدوى. تمكّنت

المعلّمة في النّهاية من تهدئة الأطفال لحُسن الحظّ، ووجَّهت حديثها إليّ أنا فقط. وقتها عمّ الهدوء المكان فجأةً، وبدأ الأطفال الآخرون يترقّبون حوارنا بحماس.

سألتني: «الألمانيّة؟». هززت رأسي.

ثمّ سألتني مرّةً أُخرى: «الإنجليزيّة؟». فهززت رأسي مُجدّداً.

اشتعلت الأجواء بالإثارة.

وسألتني المعلّمة للمرّة الثالثة: «الفرنسيّة؟».

لم أكن أعرف معنى هذه الكلمة من الأساس، فلم أعلّق، وارتسمت على وجهي حيرةٌ شديدةٌ سرَعان ما انعكست على وجهها أيضاً.

أشارت إليّ بالجلوس على الدّكّة، ثمّ التفتت إلى الأطفال الآخرين، وأعطتهم بعض التّعليمات. عادوا ليقفوا في طابور أمام الحلقات مرّةً أُخرى، واستأنفت المعلّمة حصّة الألعاب، وتنفّستُ أنا الصُّعداء. جلستُ هناك أراقب ما يحدث من مسافةٍ آمنة، لفتت انتباهي فتاةٌ ذاتُ شعرٍ داكن. عندما رنّ الجَرس مُعلناً نهاية الحصّة كان عليّ أن أتصرّف بسرعةٍ، وألّا أدع هذا الشّعر الدّاكن يغيب عن ناظري وسط زحمة التّلاميذ. شققتُ طريقي بصعوبةٍ إلى الفتاة، وسألتها إن كانت من تركيا، فنظرت إليّ وسألتني إن كنتُ أتحدّث التّركيّة.

لم أتمالك نفسي من الفرحة، وصرخت قائلةً: «*إيفيت*»، فصرخت الفتاة أيضاً، ونادت المعلّمة بأعلى صوتها قائلةً: «*فراو فجنِر، فراو فجنِر*، إنّها تتحدّث التّركيّة!».

كانت مُعجزةً، أحسستُ أنّني مخلوقٌ جاء من الفضاء، واكتشف فجأةً أنّ هناك شخصاً على كوكب الأرض يتحدّث لغة يفهمها. كان أمراً مثيراً، ليس فقط للآخرين،

بلْ كذلك للمخلوق الفضائيّ نفسه. لمْ أتمالك نفسي من الفرحة، وبدأتُ أشعر بآلاف الأسئلة تتدافع في رأسي هنا وهناك، ولمْ أكن أعرف من أين عساي أبدأ. ركض الأطفال جميعهم نحوي مرّةً أخرى، ولاحقوا الفتاة بالأسئلة. كانوا يتدافعون مثل الأسئلة التي كانت تتدافع في رأسي، حتّى إنّهم بدأوا يتشاجرون. شعرتُ بالارتياح حين طالبت المعلّمة الجميع بالانصراف، وطلبت إلى الفتاة أنْ تترجم لي بضع معلوماتٍ مهمّة. كلّفت المعلّمة هذه الفتاة بأن تنتبه إليّ، وأن تصحبني معها إلى الفصل في مبنى المدرسة حتّى لا أضلّ الطّريق، فعرفتُ عندئذٍ أنّني أنقِذتُ.

أصبحتْ «زحل» صديقتي المفضّلة. ظللتُ إلى جوارها، ولم أتركها لحظةً طيلة الأشهر الثّلاثة التّالية. أخذتني إلى مطعم المدرسة، وعلّمتني كيف نحصل على وجبة الغداء، وعرّفتني أيضاً إلى كلّ طبقٍ من الأطباق، وإلى مكوّناته، وما إن كان مذاقها حلواً أم مالحاً، أو مُرّاً، أو حامضاً، وأرشدتني أيضاً إلى قاعات الأحياء، والسّكرتارية، والحمّامات، والمطاعم، وباب الخروج، وصالات الألعاب الرّياضيّة، والصّفوف، وإلى لوحة الإعلانات التي يعلنون فيها عن الحصص المُلغاة، كما أرتني غرفة الألعاب، وغرفة الاستراحة الخاصّة بالفتيات.

حَصَلَت لي «زحل» أيضاً على خزانةٍ لأحتفظ فيها بكتبي كي لا أضطرّ إلى حملها معي إلى المنزل كلّ يوم، كما أحضرت لي الكتب التي سأحتاج إليها من منفذ توزيع الكتب بالمدرسة، وأوضحت لي أنّ الوضع في ألمانيا مختلفٌ عنه في إيران، وأنّ التّلاميذ هنا ليس عليهم أن يقفوا احتراماً للمعلّمين، أو الكبار عندما يدخلون الفصل، وحاولت «زحل» أن تفهّمني لِماذا لا يحقّ للمعلّمين ضرب التّلاميذ الألمان حتّى إن تصرّفوا معهم بوقاحة، وكانت تستغلّ الحصص الاحتياطيّة التي يذهب فيها التّلاميذ الآخرون لحضور حصص التّربية الدّينيّة لتراجع لي المواد المختلفة. طيلة تلك الأشهر الثّلاثة كانت تترجم لي ما يقوله المعلّمون والتّلاميذ حين يتحدّثون إليّ.

ولكنْ في مرحلةٍ ما، أصبحتُ عبئاً ثقيلاً عليها، بدأتُ ألحظ أنّها تتركني عمداً، وتختبئ منّي. سئمتْ «زحل» من لعب دور «الأمّ» في حياتي، لكنّ معلّمتنا الطّيّبة

الذكيّة كانت تراقب ما يحدث بحرصٍ، وانشغلت في البحث عن حلّ. نادتنا في أحد الأيّام، وطلبت إلى «زحل» أن تُترجم لي ما ستقول؛ أخبرتني أنّه قد آن لي تعلّم اللّغة الألمانيّة، وأنّها تريدني أن أكفّ عن التحدّث باللّغة التّركيّة. تأثّرت بكلامها، واقتنعت به، وبالفعل لم أتحدّث كلمةً تركيّةً واحدةً منذ ذلك اليوم على الإطلاق.

كانت «زحل» هي من تشرح لي التّنويهات التي يذيعها مدير المدرسة عبر مكبّرات الصّوت. قدّرت قيمة هذا الشّرح الذي كانت «زحل» تهمسه في أذني مع أوّل تنويه أذاعه المدير بعد حديثنا مع المعلّمة، أدركت حينها أنّني قد حُرمت من تلك الميزة. كانت التّنويهات واحدةً من التّحدّيات التي كان عليّ مواجهتها. كانت مكبّرات الصّوت المعلّقة في أفنية المدارس في إيران تُستعمل في إذاعة التّلاوات القرآنيّة، والأناشيد الوطنيّة، أو لإطلاق صفّارات الإنذار لتدريبنا على التّصرّف في حالات الغارات، ولكنْ في مدرسة هايدِلبرج كانت القاعات كلّها مزوّدة بمثل هذه المعدّات، وكان مدير مدرستنا يحبّ أنْ يستفيد من وجودها بإذاعة مثل هذه التّنويهات، وكان ذلك أوّل تنويهٍ أسمعه من دون أن تهمس «زحل» في أذني التّرجمة التّركيّة. ظننت أنّه قد يكون متعلّقاً بموضوعٍ مهمّ. ذُعرت في الوهلة الأولى كعادتي عندما خرج صوت المدير فجأةً من مُكبّرات الصّوت في منتصف الحصّة، ولكنّني قرّرت أنْ أركّز على حديثه، وأن أحاول فهم ما يقول. استشفّيت من نبرة صوته المُشرقة أنّها أخبارٌ سعيدة. استطعت أن ألتقط كلمة *«بومْس»* من بين حديثه؛ لأنّه أعادها هي والكلمة التي بعدها مراراً وتكراراً. كان يطيل في نطقها مثلما يفعل مدير السّيرك حين يُقدّم أحد الفنّانين، ويُطيل في نطق اسمه، فيصفّق الجمهور في حماس. هذا بالضّبط ما حدث حين تفوّه مدير مدرستنا بكلمة *«بومْس»*. سرعان ما تعالت صيحات التّهليل والهتاف في فصلنا، وفي الفصول المحيطة، كأنّه فريقهم المفضّل أحرز هدفاً في بطولة كأس العالم لكُرة القدم. شعرت بالسّعادة وسط هذه الأجواء، ولكنّني لم أفهم ماذا حدث. لم أستطع أن أشاركهم التّهليل، فاتتني نشوة اللّحظة؛ لأنّني كنت أتخلّف عنهم بفارق ثوانٍ قليلةٍ، وهو ما عَددتهُ دليلاً آخر على عدم انتمائي إليهم.

في وقت الغداء فهمت ما كان يعنيه المدير بالـ *«بومْس»*. كانت مدرستنا من

المدارس التي يقضي فيها الطّلاب يومهم كاملاً، ولذلك كانوا يقدّمون لنا وجبة الغداء في المطعم. كان يتعيّن على التّلاميذ الذّهاب كلّ صباحٍ قبل بدء الفسحة الكبيرة لختم قسيمة طعامهم في آلة المُشتريات الموجودة عند مدخل المدرسة ليتسنّى للطُّهاة تقدير كمّيّة الطّعام المطلوب إعداده، وكان من ينسى، أو يتكاسل، لا يحقّ له الحصول على وجبة الغداء، إلّا في حالة الحصول على توقيعٍ استثنائيّ من مدير المدرسة على قسيمة الطّعام، وفي الأيّام التي كان المطعم فيها يقدّم لحماً وبطاطس مقلية، كان التّلاميذ يتهافتون على منفذ توزيع الوجبات، ويتوسّلون الطُّهاة للحصول على وجبةٍ، أو يتكدّسون في طوابير عند مكتب مدير المدرسة للحصول على توقيعه، الذي كان له أثر الختم ذاته، ويقوم كلٌّ منهم باختراع حُجّةٍ مقنعةٍ عن سبب عدم قيامه بختم القسيمة، فلا يتبقّى لدى مدير المدرسة وقت في النّهاية ليتناول طعامه؛ لذلك كان تنويهه المُسبق عن توفُّر البطاطس المقلية في وقت الغداء ليس سوى محاولةٍ مشروعةٍ منه للدّفاع عن نفسه، ناهيك عن أنّه كان يجد فيها بعض السّعادة أيضاً. صرتُ منذ ذلك الحين أتحيّن كلمة «بومَس» في تنويهات مدير المدرسة. انتظرتُ ذلك اليوم طويلاً إلى أن جاء في نهاية المطاف، وما إنْ سمعته يقول «بومَس» حتّى انطلقت في التّهليل مع زملائي في الوقت نفسه، وليس بعدهم بلحظات، تذوّقتُ حينها طعم الاندماج.

تعرّضتُ إلى كارثةٍ صغيرةٍ بعد فترةٍ قصيرةٍ من تعهُّدي أمام المعلّمة بعدم التّفوّه بكلمةٍ تركيّةٍ واحدة. أعطتني «زحل» في أحد الأيّام ظرفاً ورديّاً صغيراً مكتوباً عليه «دعوة»، ثمّ قالت لي بالألمانيّة: «عيد ميلادي يوم السّبت، وهذه دعوتكِ، لكنّكِ لا تعرفين عنواني، هل تريدن أن أمرّ بكِ؟».

تحمّستُ كثيراً، فتسرّعتُ، وأجبتها بـ«نعم»، على الرّغم من أنّني لم أكن أعرف ماذا تعنيه كلمة «عيد ميلاد»، أو كلمة «دعوة» بالألمانيّة.

قالت لي «زحل»: «سنلتقي هنا في المدرسة يوم السّبت القادم، سأنتظركِ عند المدخل الرّئيس في السّاعة الثّانية والنّصف».

فقلتُ لها: «حسناً، شكراً!» نسيتُ الحوار الذي بدا أنّه سار على نحوِ مُرضٍ لـ«زحل»، وفاتني عيد ميلادها؛ لأنّني لم أفهم شيئاً ممّا قالته لي في ذلك اليوم. انتظرتني صديقتي دون جدوى في مكان لقائنا الموعود. شعرتُ بحرجٍ شديدٍ حين أخبرتني يوم الاثنين أنّها انتظرتني طويلاً ولم آتِ.

لم تكن «زحل» هي الفتاة التّركيّة الوحيدة في فصلنا، كان يوجد بضع فتياتٍ أخريات من تركيا، من بينهنّ فتاة اسمها «كانان» لم يكن بيني وبينها أيّ وفاق. كانت «كانان» تعاملني بخبثٍ وشرّ. كانت ضخمةً، وشديدة البنية، وتبدو كأنّها سيّدةٌ بالغة. لم أكن أرتاح لها قطّ، وذات يومٍ اكتشفتُ أنّ إحساسي تجاهها في محلّه.

كان علينا إن احتجنا إلى شراء أيّ شيءٍ أن نلجأ، كما قيل لنا، إلى الإدارة المعنيّة؛ لأنّه لم يكن يحقّ لأبي مزاولة أيّ عملٍ بغد لكونه من طالبي اللّجوء، ومع دخول فصل الصّيف، وارتفاع درجات الحرارة يوماً بعد الآخر، كان لا بدّ لي من الحصول على طقمٍ من الملابس؛ لأنّنا كنّا قد تركنا ملابسي في إيران وتركيا. لم تكن الإدارة تسلّمنا نقوداً مباشرةً، بل قسائم شراءٍ فقط. أعطتنا قسيمةً بقيمة عشرين ماركاً؛ كي أشتري بها ملابس صيفيّة. كان علينا استبدال هذه القسائم من مركز تسوّقٍ مُحدّدٍ تُباع فيه المنتجات بتكلفةٍ متوسّطة. تجوّلنا في أنحاء المركز جميعها، وتفقّدنا الملابس جميعها، ولكنّ قسيمة الشّراء التي معنا لم تكفِ لشراء بنطالين وقميصين، ثمّ عثرنا على أطقمٍ ملوّنةٍ تُباع بأسعارٍ مخفّضةٍ، كلّ منها مكوّن من بنطالٍ وقميصٍ رقيقٍ بأكمامٍ طويلةٍ، سعره تسعة ماركات، وتسعة وتسعين بفينيج فقط لا غير. اشترينا طقمين من تلك الأطقم: أصفر عليه صورة لعبة *«باربي»*، ووردياً عليه صورة شخصيّة *«بوموكل»*، ثمّ ذهبنا إلى قسم الأحذية، واشترينا زوجاً من الأحذية البيضاء المغلقة، وزوجَي صنادل ورديّين بقسائم الأحذية. شعرتُ في ذلك اليوم كأنّني ملكة ترتدي أفخم وأرقى الملابس. في المساء قمت بطيّ طقم الـ *«بوموكل»* الورديّ، ووضعته بأناقةٍ على الأرض إلى جوار سريري حتّى أرتديه في صباح اليوم التّالي. ارتديتُ الطّقم فور استيقاظي، وارتديت الصّندل الورديّ الجميل، وذهبتُ إلى المدرسة

مفتخرةً بملابسي الجديدة، ولكنْ ما إنْ رنّ جرس الحصّة الثّانية حتّى بدأ الكابوس؛ ذهب التّلاميذ الآخرون لحضور حصّة التّربية الدّينيّة، وبقينا أنا والفتيات التّركيّات في الفصل من دون إشرافٍ في انتظار الحصّة التّالية. شاء القدر أن تغيب «زحل» في ذلك اليوم بالتّحديد، وهي من كانت تترجم لي كلّ شيءٍ في تلك الفترة. انتهزت «كانان» فرصة وجودي بمفردي، وسألتني بالتّركيّة ما إن كنتُ أعرف معنى كلمة «*شلاف أنتسوج*» باللّغة الألمانيّة. لم أكن أعرف معنى هذه الكلمة. انفجرت «كانان» في نوبة ضحكٍ مدويّةٍ، وأخذت تردّد عبارات بالألمانيّة وردتْ فيها كلمة «*شلاف أنتسوج*» عدّة مرّات، فضحكت سائر الفتيات التّركيّات معها. شعرتُ بالعجز وبقلّة الحيلة. تنفّستُ الصّعداء حين انتهت الاستراحة.

عندما عاد الآخرون من حصّة الدّين ركضنا جميعاً إلى قاعة الأحياء، هناك جلست «كانان» إلى جواري على غير عادتها، وما إنْ بدأت الحصّة حتّى راحت تقرصني في فخذي تحت المكتب على نحوٍ مؤلم. رفعتُ يدي، وحاولتُ أن أشرح للمعلمة أنّ «كانان» تضايقني، ولكنّ المعلّمة غضبت منّي وعنّفتني؛ لأنّها لم تكن تحبّني، ولم تكن تحبُّ الأجانب عامّةً. شعرتُ بضيقٍ شديدٍ حتّى إنّني عجزتُ عن الكلام.

استمرّت «كانان» في تعذيبي حتّى امتلأت عيناي بالدّموع من شدّة الألم والغضب، لكنّ «كانان» لم تبالِ بذلك، بل وجدت الأمر مُضحكاً. بدأت تكتب شيئاً على ورقٍ صغيرٍ، وتوزّعه على الآخرين، وكان كلّ من يقرأ الورقة ينظر إليّ، ثمّ ينخرط في الضّحك، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل ساء أكثر في فترة الاستراحة؛ إذ سخر الجميع منّي، ونادوني بعباراتٍ لم أفهمها، ووردت فيها كلمة «*شلاف أنتسوج*»، ففهمت حينها أنّ سبب سخريتهم منّي يتعلّق بكلمة «*شلاف أنتسوج*»، ولكنْ لم أفهم لماذا. بعد انتهاء فسحة الغداء جاءت إليّ إحدى الفتيات التّركيّات لتشرح لي معنى كلمة «*شلاف أنتسوج*»، فأخبرتني أنّني أرتدي لباس نوم.

شعرتُ أنّ كابوساً من كوابيسي قد أصبح حقيقةً واقعة. كان عليّ احتمال ثلاث حصصٍ أُخرى إلى انتهاء اليوم الدّراسيّ. ظللتُ جالسةً في مكاني من دون أن أبرح

مقعدي، حتّى رنّ جرش الانصراف. تنفّستُ الصُّعداء عندما نزلتُ أخيراً من الحافلة، ووجدتُ نفسي أمام باب بيتي مرّةً أخرى؛ لهذا السّبب، كان عليّ أن أحتمل الحرّ والعَرق في ملابسي الشّتويّة طوال فصل الصّيف، إلّا ليلاً، فكنتُ أذهب للنّوم مرتديةً «لباس نومي» الصّيفيّ.

مررتُ في مدرستي الجديدة بالكثير من التّجارب العجيبة والمدهشة، لكنّني لم أستوعب ما كنت أراه وأسمعه كلّه. ظللت أكافح في تلك الفترة العصيبة؛ لأنّني أردتُ الخروج منها بسلام. أحببتُ وطني الجديد، وكنتُ دائماً أبذل قصارى جهدي. عندما كان زملائي في الفصل ينشغلون في كتابة مقالاتٍ على سبيل المثال، كانت معلّمتي تنتهز الفرصة، وتهتمّ بي على نحوٍ مُكثّف، كانت تكتب لي الأبجديّة اللّاتينيّة، الـ «A» والـ «B» والـ «C»... إلخ، بحروفٍ كبيرةٍ وصغيرةٍ، بخطّ الطّباعة، وخطّ اليد في دفتري مراراً وتكراراً، وتطلب إليّ أن أقوم بنسخها مرّةً أخرى؛ لأنّه كان يتعيّن عليّ بدايةً أن أتعلّم كتابة الأحرف اللّاتينيّة. ما كنت أعرفه آنذاك كلّه كان كتابة اللّغة الفارسيّة، التي تُكتَب من اليمين إلى اليسار، وتبدو حروفها مختلفةً تماماً عن الحروف اللّاتينيّة.

كنتُ دائماً ما أرى الطّيبة في عيون معلّمتي، وأحبّ شَعرها الأشقر الرّائع الذي كانت تتركه مسترسلاً على كتفيها، وأحبّ ابتسامتها التي لا تفارق وجهها. كنتُ أنظر إليها، وأقول لنفسي: «أنا محظوظة لأنّ معلّمتي ملاك». كنتُ أحبّها كثيراً وأشعر حين أراها أنّني قادرةٌ على تحقيق أيّ شيء. كانت صبورةً، ومتفهّمةً، وتريدني أن أتعلّم. كانت تذهب معنا في رحلات المدرسة، وتحرص على ألّا يضطرّ أبي وأمّي إلى دفع تكاليفها. لم أكن أفارقها لحظةً، ولطول قامتها، كنتُ أشعر إلى جوارها أنّني أستند إلى صخرةٍ قويّةٍ في بحرٍ ممتلئٍ بالمخاطر، أكافح فيه لأبقى على قيد الحياة. كانت هي سندي. تمدحني كلّ يومٍ وتشجّعني بذلك على المُضيّ قُدماً، وظلّت ترافقني يداً بيد على مدى عامٍ ونصفٍ في رحلة دراستي الشّاقّة.

فوجئنا في مساء أحد الأيّام بزيارةٍ من ضيفٍ غير متوقّع. كنّا جميعاً بالمنزل، ولم

يكن لدينا أيّ معارف في ذلك الوقت. لذلك تفاجأنا بشدّة حين سمعنا جَرس جهاز الهاتف الدّاخليّ. كانت تلك المرّة الأولى التي يرنّ فيها شخصٌ غريبٌ جَرس بيتنا. لم تكن لدينا فكرة من عساه يكون، وتملّك منّا الخوف لوهلةٍ، ثمّ فتحنا الباب من دون أن نسأله عمّن يكون. وقفنا جميعاً أمام باب الشّقّة، فرأينا رجُلاً يصعد السُّلّم، بدا من ملامحه أنّه إنسانٌ لطيف. كان أصلعَ، ولديه كرشٌ صغيرٌ، صوته وهو يلهث يشبه أصوات إخوتي حين يشخرون ليلاً في نفسٍ واحد. كان يحمل ملفّاً ضخماً تحت إحدى ذراعيه، ومكنسةً تحت الذّراع الأخرى. دعوناه إلى الدّخول بطبيعة الحال، وقدّمنا له الشّاي ومخبوزاتٍ فارسيّة، ولكنّنا لم نفهم سبب زيارته. رأيناه أمراً في غاية اللّطف أن يأتي أحدٌ لزيارتنا، ويقتطع من وقته حتّى يشاهد ألبومات الصّور التي أحضرناها معنا من إيران، تلك الألبومات التي كانت تضمّ صوراً لنا، ولبيتنا، واحتفالاتنا العائليّة، ومعالم أصفهان.

بدأت أمّي في تلك الأثناء في إعداد الطّعام بمنتهى السّرعة؛ لأنّنا أردنا أن نقدّم له وجبةً فارسيّةً مُعتبرةً، وما إن وضعت الطّعام على النّار حتّى امتلأت الأجواء بروائح الأرزّ بالزّعفران، ولحم الضّأن الرّائع المطهوّ مع الحمّص على الطّريقة الفارسيّة.

كان أبي قد حدّثه بالفعل عن جمال إيران في الماضي، ثمّ انتقل للحديث عن الأوضاع السّياسيّة الرّاهنة، عندها نهض الرّجُل من مكانه، وقال: «*زو!*»

كنّا قد سمعنا هذه الكلمة كثيراً من قبل، وكنّا نعرف أنّ المقصود بها هو «حسناً»، وأنّ الأحداث بعدها دائماً ما تأخذ منعطفاً آخر.

وهذا بالفعل ما حدث بالفعل.

التفت الرّجُل إلى أبي، وسأله، وهو يشير إلى الأرض: «هل تسمح لي بتنظيف السّجّاد؟». كان في تلك الأثناء قد وضع قابس المكنسة في المأخذ الكهربائيّ، واستعدّ للضّغط على زرّ التّشغيل.

لم يكن أبي متأكّداً إذا كان قد فهم ما قاله الرّجُل على نحوٍ صحيحٍ أم لا، ولكنّه أجابه بـ«نعم»، كعادته دائماً في مثل هذه المواقف.

بدأ الرّجل بنثر المسحوق الأبيض على السّجّادة بمهارةٍ فائقةٍ، ثمّ قام بكنس هذا الجزء بحركاتٍ سريعة. كان مفعول هذا المسحوق الأبيض كالسّحر؛ لأنّ ذلك الجزء من السّجّادة أصبح نظيفاً وناصعاً بالفعل، وتجلّى الفارق بينه وبين النّصف المتّسخ بوضوحٍ، ثمّ أمسك الرّجُل بملفّه، وأرانا قائمة الأسعار، وأوضح لنا بعض التّفاصيل المختلفة، وعلى الرّغم من أنّ أبي لم يفهمه إلّا أنّه استطاع أن يُفهِمَه أنّنا لا نملك أيّة نقودٍ بأن قال له كلمة واحدة: «*أزول*»؛ أي: «لجوء».

عندها حزم الرّجُل أغراضه مرّةً أُخرى، وودّعنا بلباقةٍ وانصرف. لم نفهم لِمَ قام بتنظيف نصف السّجّادة بدون مقابلٍ، ثمّ طلب نقوداً لقاء تنظيف القسم الثّاني؟ ومنذ ذلك الوقت، بقيت السّجّادة منقسمةً إلى جزأين، لكلٍّ منهما لونٌ منفصل.

سُرعان ما نسينا تلك القصّة، وانجذب اهتمامنا إلى حدثٍ آخر غريبٍ يشغل العالم من حولنا. لَحظنا كيف بدأ التّلفاز في إذاعة خبرٍ مُريبٍ، وأنّ ذلك الخبر بدأ يُهيمن على نشرات الأخبار على مدى الأسابيع التّالية. كنّا نجلس أمام شاشة التّلفاز عاجزين عن فهم التّقارير التي يعرضونها أمامنا. كانت نشرات الأخبار تعرض لنا يوميّاً صوراً لأحد المصانع، وأعمدة الدّخان تتصاعد منه، وكان التّلفاز لا ينفكّ عن بثّ الأخبار عن هذا المصنع بالتّحديد، وعرض الصّور نفسها مراراً وتكراراً.

رأيتُ رجالاً بدا على هيئتهم أنّهم شخصيّاتٌ مهمّةٌ يجلسون إلى مكاتبهم، ويُجرون اتّصالاتٍ، والقلق واضحٌ على وجوههم. رأيتُ فلّاحين يسكبون لتراتٍ عديدةً من حليب الأبقار في الزّرائب، ورأيتُ قوافلَ طويلةً من الشّاحنات تنتظر أشخاصاً يمسحونها بجهاز قياسٍ، ثمّ يدوّنون النّتائج التي تظهر لهم، فيقوم مجموعةٌ من الجنود بعدها بغسل الشّاحنات. رأيتُ رجالاً يقومون بتفتيش أكوامٍ من الصّناديق

الممتلئة بالخسّ بأيديهم، ثمّ يقولون شيئاً بشأنها، ورأيتُ فلّاحين يدمّرون محاصيلَ السّبانخ عوضاً عن حصادها. كانوا كثيراً ما يعرضون مشاهد للأمطار، وهي تتساقط في أماكن معيّنة، وتعلّق عليه مذيعات نشرات الأخبار بأنّه شيءٌ خطير. صارت النّشرات الجوّيّة تستغرق وقتاً أطول يوماً بعد يوم، وكنتُ أفشل في استيعاب مدلول خرائط الطّقس المُحيّرة بكلّ ما فيها من أسهُمٍ، وسُحبٍ مهما حاولت أن أفكّ شيفرتها.

بعدها بفترةٍ قصيرةٍ أغلقوا الملعب الخاصّ بنا، وهو ما حيّرني كثيراً. لماذا لم يعُد بإمكاننا اللّعب في صندوق الرّمل؟ لم يخطر ببالي أبداً أنّ إغلاق الملعب له علاقة بالأخبار المُريبة التي هيمنت على نشرات الأخبار.

خاتمة

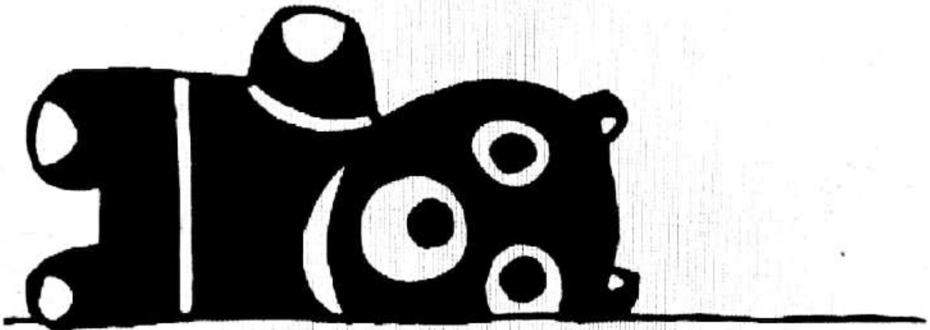

تشيرنوبيل
TSCHERNOBYL

مازال «نهر البريبيات» يمرُّ بـ«مدينة بريبيات»، أو «مدينة الأشباح» حتّى يومنا هذا، ولكنْ ما إنْ تتحد مياهه مع مياه «بحيرة كييف» حتّى يتحوَّل إلى مجرى مائيّ ضخمٍ اسمه «نهر دنيبر». يفترض بعض العلماء المعاصرين أنّ الشّعب الذي كان يعيش على ضفاف ذلك النّهر هو من أصولٍ إيرانيّة، وهو «شعب الإصقوث»، أو «السكوثيون»، وأنّ هؤلاء هُم من منحوا هذا النّهر الضّخم اسمه الحاليّ. سمّوه «نهر دنيبر» وهو ما يعني في لغتهم «الماء الكثير».

كان *السكوثيون* من الخيّالة البدو، وربّما كانوا قد عاشوا حياة البداوة فقط؛ لاعتيادهم التّجوال، والزّهد، وحياة الحُرّيّة. كان عليهم قطع مسافاتٍ طويلة على خيولهم بحثاً عن الطّعام، فكانوا يخيّمون في الأماكن التي يجدون فيها ما يبحثون عنه. وعندما ينفد الطّعام من تلك الأماكن، ويُصبح الصّيد شاقّاً أكثر من اللّازم، كانوا يفكّكون خيامهم، ويفرّون هرباً من الجوع، وبحثاً عن الطّعام. لم يكن لديهم وطن على الأرض، بلْ كانوا يجدون أوطانهم في متاعهم التي يحملونها على ظهور

خيولهم، وفي روائح أمّهاتهم وأطفالهم، وفي أحضان أحبّائهم.

ومثلما فرّ *«السكوثيون»* من الجوع ، فرّ سكان «بريبيات» من العدوّ الخفيّ الذي كان قد تربّص بهم في الماء والهواء، وهاجم أجسامهم من الدّاخل؛ كانوا يهربون من الإشعاع النّوويّ، ومن الموت المُحقّق.

في يوم 26 نيسان/أبريل من عام 1986 شهدت محطّة الطّاقة النّوويّة بمدينة تشيرنوبل الواقعة داخل حدود الاتّحاد السّوفييتي سابقاً، وأوكرانيا حاليّاً، أكبر كارثةٍ نوويّةٍ في العالم حتّى ذلك الحين؛ حيث انفجرت الوحدة الرّابعة من المُفاعل بسبب أخطاءٍ في تصميم الهيكل، وقراراتٍ خاطئةٍ من قِبَل الموظّفين، ما أدّى إلى انفجار غطاء وسقف المُفاعل، وتصاعُد المواد الانشطاريّة، والأبخرة المُشعّة على هيئة سَحابةٍ ضخمةٍ على مدى كيلومترٍ كاملٍ، وعندما بدأ الغرافيت، أو ما يُسمّى بنواة المُفاعل النّوويّ، بالانصهار، بدأت هذه المادّة شديدة السّخونة في التوغُّل في أرضيّة المُفاعل على الرّغم من أنّ سمكها بلغ عدّة أمتار.

لو أنّ الحِمم السّاخنة توغّلت داخل الأرض بما يكفي لملامسة المياه الجوفيّة، لكانت تسبّبت في انفجارٍ ضخمٍ من شأنه أن يمحو أوكرانيا، وروسيا البيضاء، وبولندا، والجزء الأكبر من أوروبّا بما فيه ألمانيا عن وجه الأرض تماماً، ولكنْ لحُسن الحظّ أسهَم العديد من النّاس في عزْل المُفاعل النّوويّ، وحالوا بذلك دون وقوع الكارثة في اللّحظة الأخيرة، للأسف مات الكثير منهم في غضون أشهرٍ قليلةٍ جرّاء تعرُّضهم إلى تسمُّمٍ إشعاعيٍّ حادّ.

التّلوُّث الإشعاعيّ لم يصل فقط إلى المنطقة الواقعة بالقُرب من المُفاعل؛ لأنّ السّحابة التي تصاعدت منه جرّاء الانفجار انطلقت بفعل الرّياح في اتّجاه السّويد، ثمّ خيّمت على أوروبّا، وامتدّت إلى ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا العظمى، واليونان، وراح الكلّ يدعو ألّا تمطر هذه السّحابة فوق بلاده، وحين تمرّ هذه السّحابة من فوق بلدٍ ما، يمتنع سكّانه عن شُرب حليب الأبقار، وعن تناول الخضروات التي منحتهم الأرض

إيّاها؛ لأنّهم كانوا يشعرون بالخوف.

تعرّض سكان مدينة «بريبيات» إلى إشعاعاتٍ نوويّةٍ بكمّيّاتٍ متفاوتة. لم يتمكّنوا من مغادرة مدينتهم الملوّثة إلّا بعد فوات الأوان؛ لأنّ السّلطات المسؤولة قلّلت من شأن الكارثة وعواقبها. بعد وقوع الكارثة بيومين دعا الجنود والمسؤولون سكّان «بريبيات» إلى حزم أمتعتهم، والوقوف أمام أبواب منازلهم في غضون نصف ساعةٍ فقط انتظاراً للحافلة التي ستنقلهم بعيداً. لم يخبرهم أحدٌ أنّهم لن يعودوا إلى مدينتهم مرّةً أخرى. سمحوا لكلّ أسرةٍ باصطحاب حقيبة سفرٍ واحدةٍ، ولكلّ طفلٍ بلعبةٍ واحدةٍ فقط، وكان ينبغي لهم أن يتخلّوا عن حيواناتهم الأليفة. بعض السّكّان الهاربين توفّي بعد فترةٍ قصيرةٍ جرّاء تعرّضه إلى التّسمّم الإشعاعيّ، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة، لكنّ معظم من ظلّوا على قيد الحياة يعانون حتّى الآن من عواقب التّلوّث الإشعاعيّ.

لم يكن قد مضى على وجودي في مدرستي الجديدة بـ«هايدِلبِرج» سوى بضعة أيّام عندما وقعت هذه الكارثة قبل ثلاثة عشر عاماً. كنتُ منشغلةً آنذاك بالعثور على أصدقاء جُدد، وبتعلُّم اللّغة الألمانيّة، وبالصّمود عبر الحياة اليوميّة في أكبر مدارس «هايدلبرج»، ولذلك لم يكن لديّ بأيّ حالٍ من الأحوال طاقة للتّركيز مع الأخبار، ومحاولة فهم مضمونها.

لكنّني أدركت الآن، بعد مرور ثلاثين عاماً، مدى ثقل كلمة «تشيرنوبل». بعد ثلاثين عاماً صارت الثّقافة وعادات النّاس هنا مألوفةً بالنّسبة إلي. عرفتُ أنّ الرّجُل الذي كان يحمل مكنسةً كان يعمل مندوباً للمبيعات، وأنّه أراد أن يبيع سلعته. صرتُ أمتلك الآن تمثالين قيّمين من السّنافر: أحدهما أحمر، والآخر أخضر، يُتداولُ شبيهاهما من قِبَل هُواة الجمع مقابل مبالغ طائلة. اعتدتُ الآن أنّ الأسبوع يبدأ في ألمانيا يوم الاثنين، وليس السّبت، وصرتُ أعرف الآن أنّ نظام المرور هنا ينصّ على أن يقتصر أعداد الرُّكّاب على أعداد «المقاعد المجهّزة بأحزمة أمان»، وتعلّمت في غضون الثّلاثين عاماً الماضية أنّ أحبّ طعم *الكرواسان* بالبُندق، وعرفتُ أنّ كلمة *«كالت»* في الألمانيّة ليست بالضّرورة مرادفاً لكلمة *«برد»* فحسب، بل إنّها قد تعني أيضاً

أنّ «الطّقس نسيميّ»، أو «لسعة برد»، أو «طقس مُنعش»، أو «قارس البرودة»، أو «طقس زمهرير».

وأتساءل الآن بعد مرور ثلاثين عاماً عمّا حدث لأطفال بريبيات الذين تحوّلت ديارهم إلى مدينة أشباحٍ مخيفةٍ، وفقدوا آباءهم ووطنهم في الوقت الذي وجدتُ أنا فيه وطناً جديداً. تُرى ماذا حدث لأولئك الأطفال الذين انحفرت قصّتهم في ذاكرتي، ولم يعد بإمكاني أنْ أنساها أبداً؟ أتعاطف معهم، وأشاركهم شعورهم بالشّوق إلى أغاني، وروائح، وصور وطنهم الذي فقدوا ترابه إلى الأبد.

قبل أكثر من مئة عامٍ من رحلتي الطّويلة استقبل جدُّ أبي «غلام رضا» موظّفين من بلاط الشّاه الإيرانيّ. قاموا بإعطائه دفتراً للقيد العائليّ، وطلبوا إليه أن يختار لقباً لعائلته. لمْ يتردّد «غلام رضا» الطّيّب، واختار لعائلته لقباً في غضون دقائق معدودة، وهو ما أسعد الموظّفين كثيراً. ما من لقبٍ آخر كان من شأنه أنْ يليق بي أكثر من هذا اللّقب الذي منحه «غلام رضا» لذريّته جميعاً، أبنائه: «يد الله»، و«عبد الله»، وابنته «فاطمة»، وأحفاده: «حسين»، وهو أبي، و«أصغر»، وأبناء أحفاده جميعاً: أنا وإخوتي الثّلاثة. حملنا جميعاً لقب «زائري أصفهاني»؛ أي: «حُجّاج أصفهان».

جئت حاجّةً من أصفهان بحثاً عن الحُرّيّة والسّلام.

Telegram:@mbooks90

الكاتبة

وُلِدَت مهرنوش زائري أصفهاني عام 1974 في أصفهان بإيران، وفرّت مع عائلتها عام 1985 من بلادها إلى ألمانيا. ترعرعت في هايدِلبِرج، ودرست التّربية الاجتماعيّة في فرايبورج بعد حصولها على شهادة الأبيتور، وانخرطت مهرنوش في العمل مع اللّاجئين منذ عام 1999، حيث كانت رئيسةً لمجلس شؤون اللّاجئين ببادن فورتمبرج، وأشرفت على مجموعةٍ من اللّاجئين القُصّر غير المصحوبين بذويهم في كارلسروه، وهي الآن مُدرِّبةٌ، ومستشارةٌ في مجال الانفتاح بين الثّقافات، والمرافقة التّطوّعيّة للّاجئين منذ عام 2014. حصلت في عام 2002 على جائزة الدّيمقراطيّة المُقدّمة من البوندستاج الألمانيّ عن تطويرها للعبةٍ تفاعليّةٍ باسم «أزولوپولي»، وفازت في عام 2012 بجائزة الابتكار من رابطة «دياكوني بادن» لإنشائها منصّة مجّانيّة لتوفير خدمات التّرجمة الفوريّة بعنوان: «دولمِتشِر بوول». صدر كتابها «فتاة القمر» عن دار نشر كِنِزِبك (مصحوباً برسوماتٍ لـ مهرداد زائري أصفهاني).

الرسّام

مهرداد زائري أصفهاني، هو شقيق الكاتبة، وولِد عام 1970 وفرّ أيضًا مع أخته من أصفهان إلى ألمانيا. قرّر بعد حصوله على شهادة الأبيتور أنْ يصبح فنّاناً، ولاقت أعماله: «أغرب الأعياد والاحتفالات» 2010-2013 ، و«واجبات الإنسان»، وغيرها، التي أُصدِرَتْ عن رابطة ودار نشر بوشِرجيلده صدى واسعاً. اُختيرَ عام 2016 ضمن الفنّانين الذين عُرِضتْ أعمالهم في إطار معرض بولونيا لكُتب الأطفال. جديرٌ بالذّكر أنّ مهرداد زائري أصفهاني يعيش مع زوجه في مانهايم.

المترجمة